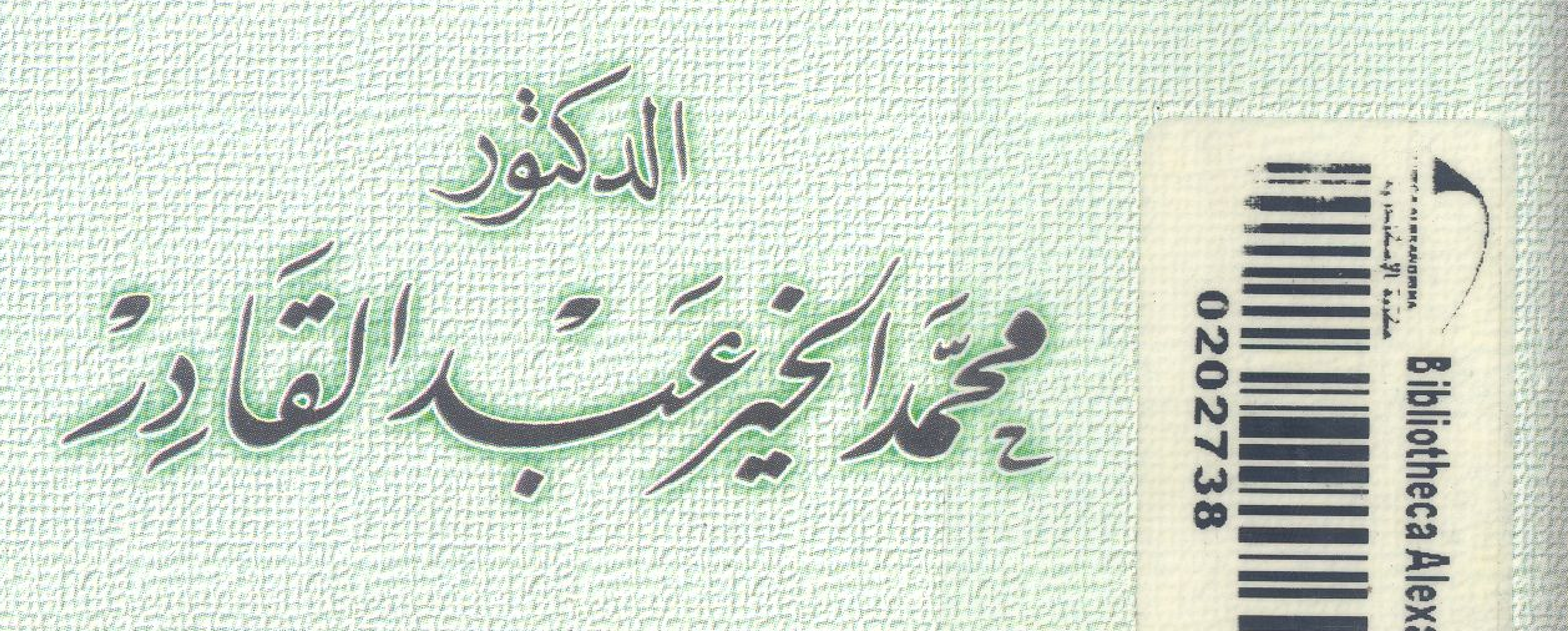
اتجاهات حديثة في الفكر العلماني

فؤاد زكريا - حسين أحمد أمين
سعيد العشماوي - فرج فوده



الدكتور
محمد الخير عبد القادر



الدار السودانية للكتب

اتجاهات حديثة

في الفكر العلماني

فؤاد زكريا - حسين أحمد أمين
سعيد العشماوي - فرج فوده

الدكتور
محمد الخير عبد القادر

الدار السودانية للكتب - الخرطوم

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

الـدار الســودانيــة للكــتب
Al Dar Al Soudania for Books

طباعة
ونشـــر
وتـــوزيـــع

Printing,
Publishing
& Distribution

الســودان ـ الخرطـوم ـ ش البلدية ، ص .ب: ٢٤٧٣،ت:٧٨٠٠٣١/ ٧٧٠٣٥٨، برقيا: توزيعدار

Sudan-Khartoum-BaladeyaSt.,P.OBox:2473,Tel:780031/770358 Telg:"TOUZIDAR"

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

مقدمة

هذه خواطر تواترت على الذهن أثناء الاطلاع على بعض المؤلّفات الحديثة لطائفة من الكُتّاب الذين يمثلون طليعة الدُّعاة إلى الفكر «العلمانى» (*) فى الوطن العربى والإسلامى ، ولا يُخفون إشفاقهم بل ذعرهم من ظاهرة اليقظة الإسلامية التى عمَّت العالم الإسلامى بعد تحرره من النفوذ الأجنبى (الاستعمار الأوربى) فَلمحتُ أن نزعة الإعجاب بالحضارة الغربية ــ وفيها ما يدعو الإعجاب حقا ــ قد جمحت ببعض هؤلاء المفكرين إلى تناول القضايا الإسلامية بأسلوب جاوز حدود الحوار الموضوعى إلى السُّخرية والتمويه، بل الطعن فى مقدسات المسلمين ، وذهب بعضهم إلى الجهر بأن مستقبل الإسلام أصبح رهينًا باعتناق المذهب العلمانى من قِبَل المسلمين والإذعان لسلطانه ، حتى إذا اقتضى الأمر إعادة النظر فى جوهر العقيدة .

لقد زعمت العلمانية على لسان أقطابها ــ غداة ظهورها فى دار الإسلام ــ أنها لا تضمر عداءً للدين وإنما تخطُّ لنفسها منهجًا فى الحياة غير منهج الدِّين وأنَّ غايتها لا تعدو أن تكون إقصاء الدين عن دائرة الحياة الواسعة ، بحيث لا تختلط أمور الدين بشؤون الدنيا .

عن أىِّ دين يتحدث هؤلاء ؟ إن العقيدة الإسلامية لا تعرف مثل هذا الفصام بين الدِّين والدنيا أو بين الروح والمادة .

إنهم يتحدثون إذن عن دين غير الإسلام ، ولكنهم يوجهون حديثهم إلى

* Secularism (العلمانية) مصطلح أوربى يعنى إقصاء الدين عن دائرة الحياة العملية بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما يتصل بها من علوم وآداب وفنون وأخلاق وتربية ، أى كل ما يتصل بأمور الدنيا . ولا صلة للعلمانية بالعلم على الإطلاق كما قد يفهم البعض (لسوء الترجمة العربية) أو كما يدعى البعض إذ هى دعوة لحصر الدين فى الضمير والمعابد والأديرة !! وهى نبت غريب على الإسلام ، بكل المقاييس.

المسلمين !! ولئن لقيت العلمانية قبولا فى البيئة الأوربية ولدى « العقلية » الغربية لأسباب تاريخية معروفة ، فإنها لن تجد فى البيئة الإسلامية سوى البوار ومن ثم انبرت أقلام الغلاة من أقطابها للنيل من الإسلام ، عقيدةً وشريعةً وتاريخًا وفكرًا ومنهجًا للحياة ، فى حملة ضارية تشهد بها مؤلفاتهم ومقالاتهم المبثوثة من خلال دور النشر والإعلام ، والتى جاءت فى إطار من الاتساق والتجاوب العميق مع ما تبثه الدوائر الإعلامية الغربية المعادية للإسلام والعرب والمسلمين .

كيف حدث ذلك ؟ ومن هم أصحاب تلك الأقلام وماذا يقولون ؟ وهل فى مقولاتهم قَبَس من نور الحقيقة « أم كلٌّ ذاك أباطيلٌ وأسمار » ؟ هذا ما تتناوله الصفحات التالية .

أُم درمان : ٢١ ذو القعدة ١٤١٧هـ

٣٠ مارس ١٩٩٧م

محمد الخير عبد القادر

الجزر المعزولة

« إن أولئك الذين يستطيعون أن يقودوا عصرهم أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه » محمد إقبال .

يومًا بعد يوم ، تحتل الدعوة الإسلامية موقعًا جديدًا على ساحة الصراع بين دعاة الفكرة الإسلامية وأنصار التوجه الغربى اللادينى (العلمانى) فى الوطن الإسلامى . وكلما سارت الدعوة خطوة إلى الأمام ، تقهقرت « اللادينية » خطوات إلى الخلف وتلك نقلة هامة في تاريخ العالم الإسلامى المعاصر ، ومع أنها خطوة أُولى على طريق طويل ، فإنها تبدو فى نظر العلمانيين طوفانًا يوشك أن يقضى على ما بنَوه على مدى قرن من الزمان . ومن ثم استيقظت فى صدورهم غريزة الدفاع عن النفس ، فنفروا خفافا وثقالا للوقوف فى وجه اليقظة الإسلامية ، وتمثل هذه الطائفة من دعاة اللادينية ــ فى واقع الأمر ــ طائفة صغيرة من الكُتَّاب ، تباينت مذاهبهم من أقصى اليسار الماركسى إلى أقصى اليمين الليبرالى واللاأدرى ؟ ولكنهم ائتلفوا ذودًا عن قلاعهم التى أوشكت أن تتلاشى فأصبحوا أشبه بالجزُر المعزولة فى محيط إسلامى كبير .

السابحون ضد التيار :

ولم تعد هزيمة الفكر العلمانى أمام المد الإسلامى سرًا ، فقد أثبت بعض كُتَّابهم هذه الحقيقة ، بحسبانها نكسة أصابت الفكر المستنير ومن هؤلاء الدكتور فؤاد زكريا فى الشرق العربى والأستاذ (بروفيسير) بسام طيبى ، أحد الأساتذة الجامعيين المقيمين فى ألمانيا .

يقول « طيبى » :

« إن عودة الإسلام السياسى إلى المنطقة العربية أثارت دهشة كثير من المراقبين الذين حسبوا أن العلمانية قد ضربت بجذورها فى بلاد المسلمين بعد الحرب العالمية

الأُولى ، وسقوط الخلافة الإسلامية ، وأن الإسلام قد تقهقر مفسِحًا المجال لتيار القومية العلمانية المنتصرة وأن دهشتهم كانت عظيمة عندما رأوا عودة الإسلام وعودة الحياة إلى الدين منذ مطلع السبعينات » (١) .

أما الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا فقد عقد العزم ــ بنص تعبيره ــ على السباحة ضد التيار ، والدكتور زكريا أحد أساتذة الفلسفة المعاصرين فى الوطن العربى ، وصَفَتْه إِحدى دور النشر العربية بأنه : « كاتب عرفت فيه حياتنا الفكرية شجاعة العقل والضمير » (٢) .

وربما كانت الشجاعة التى وُصِف بها الكاتب هى التى زينت له أن يغامر بالسِّباحة ضد التيار ، فلنستمع إلى قوله :

« هذا المقال ــ أى الذى أعده ــ سباحة ضد التيار ، والتيار الذى أتناوله هاهنا جارف ساحق يكتسح كل ما يقف أمامه من حواجز وسدود . . ذلك هو التيار الدينى الذى أصبح منذ السبعينات يمتلك قوة هائلة على الساحة الشعبية ، وفى المجالس النيابية وفى الأوساط الثقافية والذى أثبت حضوره فى عالم الاقتصاد والمال . وقد اخترت أن أسبح لا ضد هذا فحسب بل ضد أقوى ممثليه وأوسعهم انتشارًا . . أعنى الشيخ محمد متولى الشعراوى » أ . هـ .

تلك شجاعة نحمدها للدكتور فؤاد زكريا ولكنا نتساءل : هل يملك الكاتب ــ حقًا ــ مقومات السباحة ضد التيار الإسلامى ؟ نرجئ الإجابة عن السؤال حتى نستمع إلى الكاتب وتفسيره لما سماه « ظاهرة الدعوة إلى تطبيق الشريعة !! » .

---

(١) بسام طيبى ، أزمة الإسلام الحديث ، الترجمة الإنجليزية ، جامعة أوتا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، سولت ليك ستى ، ١٩٨٨ ، ص٤٥ ــ ٤٦ . انظر عرض هذا الكتاب فى مجلة « دراسات استراتيجية » مركز الدراسات الاستراتيجية، الخرطوم، العدد الثانى ، يناير ١٩٩٥ ، ص١٤٩ ــ ١٦٣ .

(٢) فؤاد زكريا، الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٨٦ ــ مقدمة الناشر .

لقد فكر الكاتب مليًا ، ثم فكر وقدر ثم انفجر قائلا :

« إننا نشأنا فى بلد إسلامى ظللنا عشرات السنين لا نعرف إلا مواطنين متدينين معتدلين يمارسون العبادة من خلال العمل والكفاح فى سبيل النهوض بأنفسهم ومجتمعهم ولم تكن المطالبة بتطبيق الشريعة إلا صيحة خافتة لا تأثير لها على المجرى العام لحياة الناس . . أما الموجة الحالية (أى الدعوة إلى الشريعة) فإنها رغم انتشارها الواسع ، ظاهرة دخيلة ينبغي علينا أن نتعقب أسبابها » (١).

ويقول الكاتب فى موضع آخر (٢) « كان للإسلام دائمًا دور فى حياة الإنسان العربى ولكنه كان دورًا معتدلا فى الحدود المعقولة التى لا يصح أن تتعداها الحياة الدينية عند الإنسان، والتدين الذى نشأنا عليه نحن فى جيلنا وفى طفولتنا كان كله تقريبًا من هذا النوع . . ولم تصبح الدعوة إلى جعل الإسلام دينًا ودولة ، دعوة حادة وعدوانية بهذا الشكل إلا فى هذه الفترة » انتهى حديث فؤاد زكريا .

المعادلة المبتورة :

هكذا ــ بجرة قلم ــ انقلبت الحقائق رأسًا على عقب ، فأصبحت الدعوة إلى تطبيق الشريعة ، عند فؤاد زكريا دخيلة على التدين فى بلاد المسلمين ، بل دعوة عدوانية !! ثم يستطرد الكاتب : « وكأى ظاهرة دخيلة ينبغى علينا أن نتعقب أسبابها إلى عوامل طارئة . . كالقمع والتسلط الفكرى والسياسى من ناحية ، ومثل سعى الثروة البترولية إلى تأمين نفسها » (٣) .

وهنا صمت المؤلف فلم يحدثنا عن الشق الآخر للمعادلة . ومن حقنا أن نسأل : إذا كانت الدعوة إلى الشريعة ظاهرة دخيلة على المجتمع المسلم فما طبيعة البنية الاجتماعية والفكرية الأصيلة فى المجتمع العربى الإسلامى ؟ .

ألا يعنى صَمْت المؤلف عن الطرف الآخر للمعادلة أن موجة التغريب التى

---

(١) المصدر السابق ص٢٧ .

(٢) مجلة الحوادث ، العدد ١٥٧٣ ــ ٢٦ ديسمبر ١٨٦ ــ ص٥١ ، ٥٢ .

(٣) زكريا : الحقيقة والوهم ، مصدر سابق ، ص١٧٩ ، ١٨٠ .

غزت العالم الإسلامى منذ القرن التاسع عشر وصبغت حياتنا الفكرية والسياسية والاقتصادية ، هى الأصل ألا يعنى صمته أن النظم والأفكار والفلسفة الاجتماعية التى فرضها الغزاة الأوربيون على المجتمع الإسلامى تمثل أصالة هذا المجتمع وأن الشريعة هى الدخيل الطارئ ؟

أىُّ قلب للحقائق وإهدار للعقل أكبر من هذا الذى يطالعنا به فؤاد زكريا ، أستاذ الفلسفة ؟ هل ترضى الفلسفة لمن تَربَّوْا في كنفها وحملوا أمانة تبليغها ، أن يقيموا دعواهم فى الحوار على افتراضات هم أعلم الناس ببطلانها ؟ أم أن كاتبنا يكيل بمكيالين ويخاطب قراءه بلسانين أحدهما لطلاب الفلسفة فى قاعة الدرس ، والثانى للقارئ الحزين الذى خدرت ذهنه دور النشر بحديثها عمن أضفت عليهم صفات الشجاعة الفكرية والملكة النقدية من أمثال هذا الكاتب!! . هل تعنى شجاعة الفكر مغالطة الحقائق الواضحة فى سبيل التغلُّب على الرأى المخالف على طريقة السوفسطائيين ؟ .

تلك إحدى عجائب فؤاد زكريا ، التى سنكشف عن المزيد منها فى سياق العرض بعد استيفاء حججه ومزاعمه وتناقضاته فى هجومه على الشريعة ثم نُتْبع ذلك بمناقشة بعض الدعاوى المشابهة فى تهافتها لأفكار زكريا ، وأعنى بها الأساطير التى يروج لها الأستاذ حسين أحمد أمين والدكتور فرج فودة باسم التجديد لتأمين ما أسماه بعضهم بثقة الناشئة المثقفة فى تراثنا الإسلامى !!

الوصاية الفكرية

حظيت الحركة الإسلامية باهتمام خاص من قبل الدكتور فؤاد زكريا ، تجلّى في إصداره كتابين أحدهما بعنوان « الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل » (١) والثانى بعنوان « الحقيقة والوهم » الذى سلف ذكره ولم يكن مبعث هذا الاهتمام إعجاب الكاتب بالحركة الإسلامية بل إشفاقه منها إذ أنها تمثل فى نظره نكسة ودعوة سلفية لإحياء ما أسماه بأديولوجية الماضى وخطرًا يهدد الفكر المستقبلى .

وفؤاد زكريا ــ إضافة إلى ذلك ــ هو أحد الكتاب المعاصرين الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على العقل البشرى ، فهو يرى أن من أبرز السمات المميزة للدعوة الإسلامية فى العصر الحديث ، الهجوم على العقل البشرى واتهامه بالقصور . (الحقيقة والوهم ص٣٢) ومشكلة الدكتور فؤاد زكريا ــ شأنه فى ذلك شأن المتأثرين بقصة الصراع بين العقل والدين التى أرّقت المفكرين الأوربيين ــ أنه توهَّم معركةً تدور رحاها بين الإسلاميين المعاصرين والعقل البشرى وذهب فى دفاعه عن العقل إلى ترديد بديهيات لاتمت بصلة إلى جوهر القضية ، فتحدث عن العقل البشرى الذى نقلنا فى قرن واحد من عصر الخيول إلى عصر الصواريخ والطائرات الأسرع من الصوت ومن تكنُولوجيا الحمام الزاجل إلى تكنُولوجيا الترانزستور والعقل الالكترونى . وهنا يثير الكاتب معركة لا وجود لها إلا فى ذهنه .

مَن قال إن الخلاف بين الإسلاميين ورموز اللادينية يدور أساسًا حول قدرة العقل البشرى أو عجزه عن نقل الإنسان من عصر الخيول إلى عصر الصواريخ ؟ ومن الذى يستطيع أن ينفى محدودية العقل البشرى وقصوره مهما ظن أنه بلغ من العالم غايته ؟!

وصدق الله العظيم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

---

(١) فؤاد زكريا : الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥م .

إن القضية المطروحة أكبر من أن تكون خلافًا حول قدرة العقل على اختراع آلة أو تطويرها ولعل الكاتب يدرك ذلك جيدًا .

إنها قضية الدين ومفهومه وتصور أبعاده بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون ، ثم بين الذين يؤمنون بالإسلام عقيدة وشريعة وبين الذين يريدون أن يطوِّعوا الإسلام لمفهوم الدين كما عرفه مفكرو الغرب من أمثال كونت ودوركايم وماركس .

تلاميذ أُوجيست كونت:

إنَّ الدين عند الله الإسلام ولكنه عند أُوجيست كونت شيء آخر يحكمه قانون وضعه كونت نفسه وسماه قانون الحالات الثلاث ، اللاهوتية والميتافيزيقية والعلمية. ورؤية فؤاد زكريا للدين هى رؤية أوجيست كونت الذى وصف الإنسان بأنه « لاهوتى » أى خرافى فى طفولته وميتافيزيقى فى صباه وعالم طبيعة في كمال نموه وهذه آخر مراحل تطور الفكر البشرى أو ما أسماها بالمرحلة العلمية أو اليقينية التى يتلاشى فيها مفهوم الدين التقليدى القائم على الغيبيات والوحى والرسل والأنبياء وتنتقل البشرية إلى أفق جديد يسوده دين جديد هو دين الإنسانية ، وزعم كونت أنه يسعى لتأسيس هذا الدين الجديد (١) .

غير أن نظريات كونت الطموحة التى يستلهمها فؤاد زكريا فى هجمته على الشريعة قد انهارت قبل نهاية القرن التاسع عشر (٢) كما انهارت الماركسية ودولتها قبل نهاية القرن العشرين ، ومن خلال نظريات كونت انبثقت رؤية فؤاد زكريا للدين وهذا ما يفسر حساسية الكاتب المفرطة تجاه ما يسميه «النص الدينى» أو

---

(١) انظر ، ليفى بريل : فلسفة أوجيست كونت ، نقله إلى العربية محمود قاسم والسيد محمد بدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٢م ، ص٣٦ ، ٤٥ .

(2) Aron, Raymond :
Main Currents of Sociological Thought , I, Penguin Books Ltd, Translated by Howard and Helen Weaver, PP. 78, 79 , 10 .

النصوص الدينية ذات العمر المحدود ، وهو يتخذ هذا التعبير الغامض ذريعة لرفض كل ما لا يعجبه من آيات الكتاب المبين ونصوص الأحاديث النبوية الشريفة وما دامت النصوص التى يتحدث عنها قد أُنزِلت في عصر النبوة فهى فى نظره لا تصلح لمواجهة قضايا العصر المتجددة !! ومن ثم يتعين تجاوزها وهذا ما ذهب إليه أيضا الأستاذ حسين أحمد أمين « فى دليل المسلم الحزين » (١) والدكتور فرج فوده فى كتاب « الحقيقة الغائبة » وتلك تخرصات قديمة طفحت بها مؤلفات المستشرقين منذ عصر رينان وهانوتو (القرن التاسع عشر) ولكنها أُلبست اليوم ثوب العصرية والتجديد والتنوير .

فالخلاف إذن بين فؤاد زكريا والحركة الإسلامية المعاصرة خلاف على المبادئ لا على الفروع والجزئيات ومراحل تطبيق الشريعة ومن العبث أن يتصدى هذا الكاتب لمناقشة صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان أو لمناقشة العقوبات الحدية وهو لا يسلم ابتداء بأن الإسلام عقيدة وشريعة .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نتجاوز الحاجز اللغوى أى فقدان اللغة المشتركة بين فؤاد زكريا والحركة الإسلامية المعاصرة ونفترض أنه يتمتع بحد أدنى من الفهم للغة غير لغة أوجيست كونت ونناقش مزاعمه على الساحة التى اختارها والمواقع التى حددها .

---

(١) دليل المسلم الحزين ص ١٣١ .

ضباب القرن التاسع عشر

يتمتع الدكتور فؤاد زكريا بوضوح يدعو إلى الإعجاب فى تناوله للقضايا الإسلامية وأعنى بذلك اعترافه الصريح بأنه لا يستطيع فهم بعض العبارات مثل «الاحتكام إلى شرع الله » و «صلاحية أحكام الشريعة لكل زمان ومكان » !! وهذا يعنى ــ ابتداءً ــ أن الدكتور يفتقر إلى المؤهلات الأساسية التى يتعين توافرها فيمن يتصدى للسباحة ضد التيار ، وقد افترضنا أنه يملك الحد الأدنى من وضوح الرؤية لمفهوم الدين عند المسلمين عسى أن نجد بذلك لغة مشتركة يدور من خلالها الحوار ، ولكنه أخلَد إلى نظريات القرن التاسع عشر وفلسفاته التى مازالت تضع على عينيه طبقة كثيفة من الضباب .

يقول كاتبنا فى معرض اعترافاته :

« إنه عاجز عن فهم تعبير الاحتكام فى كل شىء إلى شرع الله ويقول عن عبارة « صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان » أن المعنى المباشر لعبارتهم هذه هو أن الله قد وضع للناس فى وقت ما سننًا ينبغى عليهم أن يسيروا وفقًا لها إلى أبد الدهر ، وأقصى ما يمكنهم أن يتصرفوا فيه هو أن يجددوا فى تفسير هذا النص أو تأويل ذاك ، ولكن الخطوط العامة لمسار البشرية اللاحق كلها مرسومة ومحددة» (١) .

وفى رأى الكاتب الفيلسوف «أن ثمة تناقضًا بين هذا الفهم وبين استخلاف الإنسان فى الأرض؛ لأن تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان واستخلافه فى الأرض لا يتمشى مع تحديد المسار البشرى مقدمًا ووضع قواعد يتعين على الإنسان ألا يخرج منها مهما تغير وتطور » (٢) .

---

(١) فؤاد زكريا ، الحقيقة والوهم ، مصدر سابق ، ص ١٣ .
(٢) نفسه ، ص ١٣ .

وحجة الكاتب : «أنه فى الميدان البشرى لا شىء ثابت أو نهائى» (ص١٤) ؟ ولم يوضح الكاتب ماذا يعنى بالميدان البشرى ؟ هل يعنى خَلْق الإنسان ؟ أم عقله وبدنه ؟ أم روحه ونفسه ؟ أم غرائزه وسلوكه ؟ أم سُموُّه فى مدارج الإيمان وهبوطه إلى درك الضلال ؟ أم مصيره بعد الموت ؟

فهل نستطيع أن نفترض أن مثل هذه الأفكار التى يطرحها الكاتب (وهى إلى حد كبير صدى لأفكار كونت ولودفج بخنر وكارل ماركس) تمثل أساسًا صالحًا للحوار ؟ لا أحسب ذلك . ومع هذا كله يخوض الكاتب فى الحديث عن « شمول الإسلام » بل يورد الأحاديث النبوية ليدحض بها حجج الداعين إلى الإسلام الشامل فيقول :

« لقد أشار عدد غير قليل من أصحاب الردود فى معرض تأكيده قدرة الشريعة الإسلامية على التعبير عن تطورات العصر إلى الحديث الشريف « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** »والشىء الذى فات هؤلاء ــ مازال المتحدث هو الدكتور زكريا ــ أن هذا الحديث يعارض بصراحة مبدأ الإسلام الشامل ، فإذا كان تصريف الأمور الدنيوية متروكًا لتقدير الإنسان ولظروفه وطبيعة عصره فإن فكرة الإسلام الشامل تؤدى ــ وفقًا لنص الحديث الشريف ــ إلى الحد من قدرة الإنسان على تصريف أمور دنياه على النحو الذى هو أعلم به [(١)] أرأيت كيف يفسر الناقد الكبير الأحاديث النبوية ؟ تلك بعض آثار الضباب !!

تفسير ماركسى استشراقى:

ومادام الدكتور فؤاد زكريا يتناول القضايا الإسلامية من منظور أئمة الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر وتابعيهم فى مطلع القرن العشرين ، فإن الأمل فى إيجاد لغة مشتركة مع الكاتب يبدو أمرًا بعيد المنال . ومع ذلك فلنستمع إلى المزيد من آرائه حول التراث واستحالة تطبيق الشريعة ، وتفسيره للفتوح الإسلامية

---

(١) نفسه ، ص ١٦٦ .

وبترول الشرق الأوسط والصحراء وعلاقتها بالإسلام وسخريته من عذاب القبر (نعوذ بالله منه) لأن تصوره لهذه القضايا يلقى ضوءًا ساطعًا على طبيعة تفكيره .

إن الإسلام فى نظر الكاتب لا يعدو أن يكون جزءًا من التقاليد الموروثة !!

فهو يقول عن « البتروإسلام» .

« إن بترول الشرق الأوسط لم يظهر فى مجتمعات زراعية تخضع لحكومات مركزية منذ ألوف السنين مثل مصر ولم يظهر فى مجتمعات تجارية نشطة متحركة مثل سوريا ولبنان ، وإنما ظهر فى مجتمعات صحراوية قبلية تسيطر عليها التقاليد الموروثة وضمنها الإسلام ، سيطرة كبرى. . أى أنه ظهر فى المناطق التى كان للإسلام التقليدى فيها أعظم التأثير » (١) ولا يعنينا من هذه العبارة مواقع حقول النفط فى الشرق العربى بقدر ما تهمنا إشارة المؤلف إلى الإسلام بحسبانه مكونًا من مكونات التقاليد الموروثة فى مجتمعات صحراوية قبلية؛ لأنَّ مستشرقى القرن التاسع وكثيرًا من تلاميذهم كانوا يصفون الدعوة الإسلامية بأنها حركة صحراوية قبلية بدائية !! : ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ .

ثم يتجه بصر المؤلف صوب الفتوح الإسلامية ليفسر لنا ما وراء تلك الانطلاقة الفريدة فى تاريخ البشرية التى قال عنها الدكتور شكرى فيصل : « حين تقدم المسلمون للمرة الأولى بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص كان يغلب الدعاءُ حركتَهم وكان يتوّج هذه الحركة ويكسوها هذا الثوب الألق ويحيل الجهاد فى سبيلها جهادًا طريًا نديًا لا تخالطه قسوة الغرض المادى أو نشوة القبيلة المستعلية؟» (٢).

فماذا قال عنها فؤاد زكريا ؟ إنه لم ير فيها غير حركة كان الفقر من أقوى

---

(١) نفسه ، ص٢٢ ، ٢٣ .

(٢) شكرى فيصل ، المجتمعات الإسلامية فى القرن الهجرى الأول ، دار العلم للملايين، بيروت ١٧٣ ، ص١٨٩ .

حوافزها وكانت الخشونة من أبرز سماتها !! إنه يقول : « ومن المُسَلَّم به أن الفقر كان من أقوى الحوافز على خروج المسلمين من ديارهم فى الجزيرة العربية محمَّلين بكلِّ قِيَم الخشونة والتقشف والبداوة وبكل الحماسة التى بعثها فى نفوسهم الدين الجديد » (١) .

هكذا أحكمت الفلسفة الماركسية قبضتها على هذا الكاتب فأخذ يفسر تاريخ الإسلام وشعائره وعقيدته تفسيرًا ماديًا قائلاً : « ولكن من المؤكد (كذا) أن العامل الاقتصادى كان له دوره الأساسى فى صميم العقيدة ذاتها» (٢) .

ومن قَبل حاول الدكتور لويس عوض (٣) أن يصب تاريخ الإسلام فى قالب الصراع الطبقى تعزيزًا لنظرية ماركس فى تفسير التاريخ وفقًا « لماديته التاريخية » ويجىء فؤاد زكريا بعده ليجعل للعامل الاقتصادى دورًا أساسيًا فى صميم العقيدة الإسلامية !! أما الحضارة الإسلامية التى غيرت وجه الحياة الإنسانية على اتساع قارات ثلاث ، خلال فترة لا تتجاوز قرنًا من الزمان ـ بفضل موجة الفتوح الإسلامية ـ فلم يجد فؤاد زكريا وصفًا لها سوى : خروج المسلمين من ديارهم فى الجزيرة العربية محملين بكل قيم الخشونة والتقشف والبداوة. ولا بأس من إضافة تعبير الحماسة الدينية حتى تستساغ الجرعة ويسهل ابتلاع قِيَم الخشونة والبداوة !! هذا كل ما يعرفه المؤلف أو ما يدعى معرفته عن الإسلام وفكره وحضارته ! وإزاء هذا التشويه والمسخ لتاريخ الإسلام يحق للقارئ أن يبحث عن الوجه الحقيقى لتلك الانطلاقة وطبيعتها كما فهمها العلماء المحققون من أمثال الدكتور شكرى فيصل الذى يقول فى بحثه الهام عن حركة الفتح الإسلامى : « وكذلك ينثال العرب فى هذه المرة (أى فى ظل الإسلام) دعاةً وجنودًا فى

---

(١) فؤاد زكريا، الحقيقة والوهم، مصدر سابق ، س٢٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) لويس عوض ، مقدمة فى فقه اللغة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٥٤ .

الطرق التى كانوا ينثالون فيها تجاراً وجنوداً للتجارة . . فى صدورهم مطامح وكان فى صدورهم مطامع، فى قلوبهم وألسنتهم حساب اليوم الآخر ، وكان فى قلوبهم وألسنتهم حساب غنيمة الدنيا. . . إلخ [1].

ولكن الدكتور زكريا لا يقف عند هذا الحد وإنما سولت له جرأته أن يتحدث ـ فى معرض سخريته من الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ عن الآيات المتعلقة بالسماوات والأرض قائلاً :

« إن هذا الموضوع ، أى موضوع علاقة السماء الأولى بالسماء الثانية والثانية بالثالثة وهلم جرا قد حسمته العلوم الفلكية والطبيعية منذ عهد بعيد » [2] ولم يوضّح المؤلف متى كان هذا الحسم وكيف كان ؟ .

هكذا يطلق أستاذ الفلسفة القول على عواهنه .

ومن خلال هذه الرؤية اللادينية يقف المؤلف شاهراً قلمه فى وجه الشريعة الإسلامية وحركة البعث الإسلامى .

---

(١) شكرى فيصل ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤ ص١٩ .

(٢) فؤاد زكريا ، الحقيقة والوهم ، مصدر سابق ص٣١ .

ترويج الأباطيل

لئن كان الإسلام فى نظر الدكتور فؤاد زكريا جزءًا من التقاليد الموروثة وكانت العقيدة وليدة الظروف الاقتصادية ، فإن فرج فودة خلص إلى حتمية تغير الثوابت الدينية !! فقال : « إن قواعد الدين ثابتة وظروف الحياة متغيرة ، وفى المقابلة بين الثابت والمتغير ، لا بد أن يحدث جزء من المخالفة ، ونقصد بالمخالفة أن يتغير الثابت أو يثبت المتغير ، ولأن تثبيت واقع الحياة المتغير مستحيل ، فقد كان الأمر ينتهى دائمًا بتغيير الثوابت الدينية » !! (كذا) (١).

ثم يوضح الكاتب مذهبه فى الاجتهاد بقوله : « وتغيير الثوابت (الدينية) هو ما نسميه بالاجتهاد !! ثم لا يتورع الكاتب المجتهد فيفترى على الخلافة الراشدة قائلاً: وقد حدث هذا (أى تغيير الثوابت) دائمًا ومنذ بدء الخلافة الراشدة وحتى انتهت » (٢) .

وتلك إحدى آفات الفكر العلمانى المعاصر : الافتراء وتشويه ماضى الإسلام وحاضره على السواء ، لإثبات أن الإسلام دين لا دولة !! ولم يقف العبث بتاريخ الإسلام عند حد الخلافة وإنكار مشروعيتها كما فعل الشيخ على عبد الرازق في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ، بل تعدى ذلك إلى الطعن فى أجِلَّة الصحابة رضوان الله عليهم واتهام بعضهم بالكذب والخداع ،والزعم بأن القرآن أوحى بالمعنى لا باللفظ ، ابتغاء التحلل من نصوصه واستلهام روحه !! وفى هذا الصدد يقول المستشار سعيد العشماوى ــ وهو قطب جديد من أقطاب العلمانية ــ « أن القرآن نزل على المعانى وقصد إليها ، وإذا كانت المعانى تقبل التعبير عنها بأكثر من لفظ فقد تضمن التنزيل صياغتها فى لفظ وأجازها النبى ﷺ بلفظ آخر يفيد معناه» (انتهى حديث العشماوى) (٣) .

---

(١) فرج فودة ، الحقيقة الغائبة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، باريس، ١٩٨٧ ، ص٧٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) محمد عمارة ، قراءة فى المشروع الفكرى للمستشار عشماوى (أى محمد سعيد العشماوى) ، صحيفة المسلمون ، العدد ٥١٥ بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٩٤م .

وزعم العشماوى أن الإسلام تَشكَّل فى صيغة حربية منذ معركة بدر وغزوة خيبر بفعل رسول الله ﷺ (١) .

وقال فرج فودة : « ولعل بعض القراء يندهشون وربما يسمعون للمرة الأُولى أن أبا حنيفة رضى الله عنه قد أباح (كذا) نوعًا من الخمور (٢).

وقال عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنه أمر كبار الصحابة بالبقاء فى المدينة وحظر عليهم مغادرتها . . وفسر ذلك لهم فى رفق بأنه يحب أن يستأنس بهم ، بينما حقيقة الأمر ــ والحديث مازال لفودة ــ أنه خشى أن يُفتن الناس بهم !! » وهذا جهل بشخصية عمر وشجاعته فى الحق . واتهم عمر بتعطيل نص من القرآن !! وتساءل : هل يجوز لنا أن نتأسى بعمر فنعطل نصًا أو نجتهد إلى مخالفته (أى مخالفة القرآن) إذا انعدمت علته وتغيرت أسبابه؟» (٣) ، ولم يدرك الكاتب أن عمر رضى الله عنه لم يخالف نصًا من نصوص القرآن الكريم وإنما دَرَأَ الحدود بالشبهات .

وقال فى سخف مستهجن : « واللحاق بركب التقدم العلمى لن يحدث بمجرد استخدام السواك بديلا عن فرشاة الأسنان أو تكحيل العينين أو إضاعة الوقت فى الخلاف حول طريقة دخول المرحاض » !! (٤) .

وفى سذاجة أكثر سخفًا تساءل : « كيف تحل مشكلة الإسكان المعقدة ، وكيف ترتفع الأجور وتنخفض الأسعار ، وكيف تحل مشكلة الديون الخارجية بمجرد تطبيق الشريعة الإسلامية ؟؟!!» (٥) والدكتور فرج فودة خبير زراعى بحكم الدراسة والمهنة . وعجبت لماذا لم يسأل : كيف نحصل على البذور المحسنة وآلات حراثة الأرض إذا طبقت الشريعة ؟ ويختم حديثه قائلا : «إن تطبيق الشريعة يعنى طبع نسخة كربونية من عصر الراشدين فى عصرنا الحديث !!» (٦) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) فرج فودة ، الحقيقة الغائبة ، مصدر سابق ص١١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٨ ــ ٥٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٣٢ .

(٥) نفسه ، ص٣٠ .

(٦) نفسه ص ٦٦ .

أما حسين أحمد أمين فيكتب : « من ركوب الجمل إلى ركوب الطائرة » [1] تمامًا كما فعل فؤاد زكريا مع الحمام الزاجل وعصر الصواريخ : ﴿تشابهت قلوبهم﴾ .

ثم يتخذ من الأحاديث الموضوعة ــ وكأنه هو الذى اكتشفها ــ ذريعة للتشكيك فى السنة النبوية، ويصف أبا هريرة رضى الله عنه قائلاً : وأطلق عليه البعض ــ فى سياق حديث له عن الصحابة ــ وصف (الكذاب الورع) [2] ولم يوضح من هم هؤلاء ؟ وتقول مصادر المستشرقين: إن هذه الفرية من أكاذيب شبرنجر وجولد تسيهر وقد وردت فى كتاب جولد تسيهر « دراسات إسلامية » الترجمة الإنجليزية ، لندن ١٩٧١ ، ص٥٧ .

ولعل حسين أحمد أمين لم يفكر لحظة ، وهو ينفث سموم الاستشراق أن الكذب والورع نقيضَان لا يجتمعان ، فكيف سقط فى هذا المأزق ؟

ثم يتحدث المؤلف عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلا يجد ما يقوله عنه وعن جمعه القرآن الكريم ودرئه الفتنة التى أطلّت برأسها من جراء اختلاف القراءات فى المدن والأمصار ، حتى قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه لعثمان :

« يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » [2] .

فأدركها عثمان رضى الله عنه وأرضاه بجمع شمل المسلمين على المصحف الذى يتلونه اليوم .

لم يجد حسين أحمد أمين ما يقوله عن هذا العمل الجليل سوى مقولة نسبها إلى مجهولين ، قائلاً ــ أى حسين أمين ــ : « وقد اتهمه هؤلاء الخصوم بأنه قد حذف من مصحفه خمسمائة كلمة (كذا) أوردتها مصاحف أخرى » ! (دليل

---

(١) حسين أحمد أمين ، دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك فى القرن العشرين ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، ص١٢٥ .

(٢) نفسه ص ٤٩ .

(٣) الشيخ يوسف إبراهيم النور ، مع المصاحف ، دار المنار ، دُبى الإمارات العربية المتحدة. ١٩٩٣ ، ص١٣ .

المسلم الحزين ، ص٤٨) ولم يسأل عن طبيعة هذه الكلمات المزعومة * . وقال أيضًا . « ويبدو لنا أن الاتجاه إلى وضع الأحاديث من أجل تشويه السمعة . . قد بدأ فى زمن الخليفة عثمان بن عفان حين كثر شاكوه وقل شاكروه »[1] .

هكذا بلغت الجرأة برؤوس العلمانية فى ترويج الأباطيل. والإساءة إلى الإسلام فى أنصع عصوره .

* انظر : أحمد على الإمام : القرآن الكريم وتعدد قراءاته ، رسالة دكتوراه ، جامعة إدنبره ، المملكة المتحدة . والعدد الأول من مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ، ذو القعدة ، ١٤١٥هـ ــ أم درمان ، السودان ، ص٥٩ ، ٥٠ .

(١) دليل المسلم الحزين ، ص ٤٨ .

العلمانية تدافع عن نفسها

وذاك حق مكفول لها . فماذا قالت :

لقد تصدر البروفيسير بسام طيبى [(١)] الدفاع عنها قائلاً :

« إن العلمانية بريئة مما ترمى به من تهم . إنها لا تعنى هدم الدين ولا تدعو إلى الرذيلة ، وإنما هى منهج للحياة ، يعطى الدين معنى جديدًا ووضعًا عصريًا يحرره من المفهوم التقليدى المرتبط بالقرآن والسنة النبوية وبإسلام العصور الوسطى . . الإسلام البدائى الذى لم يشهد عصر العلم و(التكنولوجيا) » :

ثم يؤكد البروفيسير طيبى أن العلمانية أضحت مرحلة حتمية فى تطور المجتمع الصناعى (مقدمة المؤلف للطبعة الإنجليزية من كتابه « أزمة الإسلام الحديث») .

وفى جرأة مماثلة لجرأة فؤاد زكريا دعا المؤلف فى كتابه إلى « علمنة » الإسلام. بتحويل معتقداته الدينية إلى معتقدات مدنية؟ «civil» استجابة لمقتضيات العصر ، ذلك أن الإسلام ــ فى نظره ــ يمثل ثقافة عصر غابر تعيش فى عصر العلم !! ثم يقول « إن العلمانية لا تعادى الإسلام ولكنها تسعى إلى إصلاحه وتحريره من الارتباط بالقرآن ، حتى يصبح الدين قضية شخصية لا صلة له بكتاب مُنزل أو نبى مرسل أو وحى يوحى أو دولة تبنى !! ألم يقل اللورد كرومر ذلك منذ أكثر من قرن ؟ [(٢)] فى كتابه : « مصر الحديثة » حين قال: إن عودة الإسلام

---

(١) بروفيسير بسام طيبى Bassam Tibi أستاذ العلاقات الدولية بجامعة جورج أُوغست فى مدينة جوتنجن بألمانيا وهو سورى المولد والنشأة ، ألمانى الهوية أعد بحثًا بالألمانية تحت عنوان « أزمة الإسلام الحديث » صدر فى مدينة ميونخ عام ١٩٨١ ونقلته إلى الإنجليزية الباحثة جوديث فون سيفرس من جامعة أوتا بالولايات المتحدة الأمريكية ونشرته الجامعة المذكورة فى مدينة Salt Lake City عام ١٩٨٨ تحت عنوان :

The Crisis of Modern Islam, a Pre- industrial Culture in the Scientific Technological Age.

2- Cromer, Earl of : Modern Egypt, Macmillan and Co. London 1908 vol.. 2,p. 234 .

بمعنى إحياء القرآن والسنة أضحى حلمًا من الأحلام » ولكنه أى كرومر لم يستبعد أن يعود المسلمون يومًا ما إلى إسلام جديد يستند إلى قاعدة أخلاقية تربط المجتمع بمعزل عن تعاليم محمد ﷺ ، ولم تصدق مقولة كرومر هنا لأن الإسلام عاد أصلب عودًا وأكثر نفرًا وأعز جندا تحت راية القرآن الكريم وسنة رسول الله الأمين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

غير أن آمال كرومر لم تذهب كلها أدراج الرياح فقد خلف من بعده خلف اتبعوا سبيله ورددوا أفكاره ــ كأنها صادرة عنهم بالأصالة !! ألم يقل ــ فى تعميم مفرط ــ « إن المصرى المثقف (المتفرنج) يفقد إسلامه من خلال تعليمه الأوربى حتى ينتهى به المطاف إلى الانسلاخ من دينه ثم لا يجد مناصا من الارتماء فى أحضان الحضارة الغربية ، ويعلن تحرره من كل العواطف والمؤثرات الدينية»؟ (١).

ألا تصب ادعاءات بسام طيبى وفؤاد زكريا وحسين أحمد أمين وفرج فودة والمستشار سعيد العشماوى فى مستنقع الأفكار والتوقعات التى بسطها كرومر فى كتابه « مصر الحديثة» ؟! .

لقد أودع حسين أمين خلاصة أباطيله وقدحه فى الصحابة رضوان الله عليهم وتشكيكه فى السنة النبوية وتقوله على فقهاء الإسلام والافتراء عليهم أودع كل ذلك بغير حياء ــ فى كتابه «دليل المسلم الحزين » . ثم أباح لنفسه أن يجتهد لتطوير الإسلام فيدعو ــ لا إلى تطوير الفقه والقانون والنظم والآليات كما يقول الدكتور محمد عمارة ــ بل إلى إعادة النظر فى العقائد والقيم وقطاع الثوابت * حتى تساءل الدكتور عمارة : « بأى عقل تطلب ، أى يا حسين ، إلينا إعادة النظر فى العقائد والفرائض » (٢) .

وقد سلف القول : أن فرج فودة دعا إلى تغيير الثوابت الدينية ؛ لأن ظروف

---

(١) Cromer , op . Cit, pp233 - 234.

* انظر : حسين أحمد أمين : الإسلام فى عالم متغير ــ مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص٢٧٤ وما بعدها .

(٢) انظر مقال الدكتور محمد عمارة بعنوان « حسين أحمد أمين : هل هو أمين ؟ » فى صحيفة الشعب المصرية ، القاهرة العدد (٨٩٠)، ٨ أكتوبر ١٩٩٤ص ٩.

الحياة متغيرة فلا مناص من تغيير الثابت !! (١) .

وافترى على الخلفاء الراشدين بأنهم غيروا ثوابت الدين!! ومن ترويج الكاتب للقدح فى الصحابة والخلفاء الراشدين وكتاب الوحى مقولته :

« صحيح أننا نعلم أن الصحابى عبد الله بن مسعود ــ كان يعتبر نفسه أحد الثقات الكبار فى القرآن ــ ذهب إلى أن نسخة القرآن التى أقرها الخليفة عثمان بن عفان محرفة غير كاملة واتهم زيد بن ثابت (كاتب الوحى) وأصحابه ممن جمعوا القرآن باستبعاد آيات تلعن الأمويين ــ غير أن هذا الاتهام غير مقبول » (٢) انتهى حديث الكاتب .

فى هذه الجملة القصيرة تشكك رواية الكاتب فى جمع القرآن وفى أمانة كُتاب الوحى وفى مقدمتهم زيد بن ثابت الذى خاطبه خليفة المسلمين أبو بكر رضى الله عنه بقوله ــ أى لزيد : « إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى » ثم أثنى عليه بأربع صفات كونه شابًا فيكون أنشط لما يطلب منه وكونه عاقلا فيكون أوعى له وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه وكونه كان يكتب الوحى فيكون أكثر ممارسة له » (٣) .

وفى موضع آخر رَوَّج الكاتب أكذوبة شبرنجر على أبى هريرة رضى الله عنه، ثم هاهو الآن يروِّج مقولة مزعومة تطعن فى أمانة ذى النورين رضى الله عنه الذى جمع القرآن وجَمَعَ المسلمين على رَسْم مُوحَّد للمصحف ، وفعل ذلك بمشورة الصحابة ورضائهم وتأييدهم .

ومع ذلك هناك من يحسن الظن بالعلمانية ويحسبها دعوة بريئة ومن هؤلاء الذين بدت عليهم سمات البراءة فى حسن ظنهم بالعلمانية كاتب يدعى حامد سليمان ، قال فى حديث له بمجلة أكتوبر القاهرية تحت عنوان : « الإسلام ليس لعبة الفقهاء » .

« فكلنا نقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت » . . . إلخ

(١) فودة ، الحقيقة الغائبة ، مصدر سابق ، ص ٧٠ .

(٢) حسين أحمد أمين، دليل المسلم ، مصدر سابق ص ٣٨.

(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، دار الريان ، القاهرة ١٩٨٧م ج٨ ، ص٦٣ .

غير أنه أثبت اعتراضه على « الإسلام » المتعلق بشؤون الدين سياسيًا واقتصاديًا وقانونيًا واجتماعيًا وعسكريًا بحسبان هذه « الأشياء » من المتغيرات التى تختلف مع الزمان ولا تخضع لمقدسات الحلال والحرام (١) .

وهذه مقولة تنم عن براءة مفرطة ! ولعل الكاتب نسى أن يوضح أين تقع الزكاة والحج وأكل الربا فى هذا التصنيف العجيب ، وأين موقع الجهاد الذى جُعِل فرض عين إذا استباح العدو أرض الإسلام وبَشَّر الشهداء فيه بأنهم أحياء يرزقون ؟ .

أهى من شؤون الدنيا أم من شؤون الآخرة ؟ نترك مناقشة الكاتب إلى حين ، لأن العلمانية بوجهها الجديد لن تتركه آمنا من بطشها إن علمت أنه يؤدى الفرائض التى ذكرها وقد ترقى الفرائض الدينية إلى مستوى المخالفات لسنن الرقى والتقدم ومن ثم توجب المسائلة أو العقاب أو الإدانة والتاريخ الحديث ملىء بالعبر والعجائب !! وقد شهدنا أمة مسلمة أصدرت حكومتها قانونًا يحظر التعليم الدينى فى مدارسها ووضعت قيودًا على الأذان للصلاة ، تعبيرًا عن التزامها الصارم بمبدئها العلمانى !!

وقرأنا لكاتب فى قطر إسلامى كبير يطالب بإعادة النظر فى المفاهيم والمعتقدات والقيم الإسلامية وإعادة تفسير العقيدة ، استنادًا إلى أن تطور المفاهيم والقيم فى أى دين لا تبقى أبدًا على حالها * ، ويقترح الكاتب أن تتصدى لهذه المهمة جماعة أو لجنة أو هيئة دائمة تضم نخبة لا من علماء الدين وحدهم وإنما أيضًا من كبار الخبراء فى العلوم المختلفة سواء كانوا من العلمانيين أو من غيرهم ، مسلمين أو غير مسلمين ؛ ويدخل فى دائرة غير المسلمين الملاحدة الذين قد ينادون بطرح الأحكام والقيم القديمة التى تحول دون التكيف وفق الظروف المستجدة ** .

---

(١) مجلة أكتوبر ، العدد ٨٧٦، بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٩٣م، ص٢٠ .

* حسين أحمد أمين « الإسلام فى عالم متغير » مكتبة مدبولى ـ القاهرة ، ١٩٨٨ ص٢٧٢ .

** المصدر نفسه ، ص٢٨١ وانظر أيضًا ص٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ .

وتشمل الموضوعات التى تناقشها هذه الهيئة : النظر فى تأثير الصوم على نمو الصبيان وصحة الشيوخ ، وحجم الإنتاج خلال شهر رمضان وعواقب الحجاب بالنسبة للمرأة وفوائد البنوك والميراث وأثر شكل الإنتاج فى تغذية العاطفة الدينية وإخمادها !!! .

مأزق العلمانية فى المجتمع الإسلامى

شـريعةٌ لك فجَّـرتَ العقـول بهـا عن زاخر بصـنوف العِلْم ملتـطم
يلوح حول سنا التوحيـد جوهرُها كالحَلْيِ للسيف أو كالْوَشْيِ للعَلَم
لما اعتلَت دولة الإسـلام واتَّسعت مَشَـتْ ممالـكُه فى نـورها التَّمِـمِ

« أحمد شوقى ـ نهج البردة فى مدح رسول الله ﷺ »

قد لا يستطيع دعاة العلمانية أن يسبحوا مع أحمد شوقى فى تلك الآفاق الرفيعة وهو يوضح كيف الْتقَت علوم الدين والدنيا في كنف الإسلام ،وكيف فجَّرت العقيدة الإسلامية ـ تحت مظلة التوحيد ـ ثورة العقل وطاقة الروح لبناء المجتمع الفاضل . وقد تبدو هذه الأبيات الشعرية فى نظرهم حلمًا من أحلام الشعراء أو ضربًا من الأدب التبريرى Apologetics ولذلك نحيلهم إلى المصادر الغربية التى قد يفهمونها لتحدثهم عن دَور الإسلام فى تحرير العقل البشرى وفى تفجير ثورة العلم « والتكنولوجيا » على نحو لم يفطن له البروفيسير بسام طيبى ـ أو تجاهله عامدًا ـ وهو يُقسِّم الإسلام إلى إسلام بدائى وإسلام عصور وسطى !! ويصف الثقافة الإسلامية بأنها ثقافة عصر بائد لم يشهد عصر العلم والصناعة والحديث موجه أيضا إلى فرج فودة وحسين أحمد أمين وفؤاد زكريا، ومن تبعهم.

ولنبدأ بحديث البارون كارادى ڤو (١٨٦٨ ـ ١٩٣٩م) وهو من علماء الاستشراق الفرنسيين المشهود لهم بالعلم إذ يقول « لقد ارتفع العرب أى المسلمون بالحياة العقلية والدراسات العلمية إلى أسمى مقام حيث كان العالم المسيحى يناضل نضال المستميت للانعتاق من البربرية » (١) .

ويقول محمد أسد (ليوبولد فايس) وهو نمساوى مسلم :

« إن العصـر العلمـى الحديث الذى نعيـش فيه لم يدشـن فى مدن أوربية

---

(١) « تراث الإسلام » بحوث لنخبة من المستشرقين أشرف على إعدادها توماس أرنولد وألفريد جيوم، الترجمة العربية بقلم جرجس فتح الله ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٧م ص٥٦٤ .

ولكن فى المراكز الإسلامية فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة . وإن أثر هذا النفوذ « الإسلامى » فى أوربا كان عظيمًا . ولم يأت التاريخ الأوربى بأكثر من اعتراف عادل بقيمة الحضارة الإسلامية حينما سَمَّى عصر التجديد ـ الذى نتج عن الاحتكاك الحيوى بالثقافة الإسلامية ـ عصر البعث أو عصر النهضة «رينيسانس» (١) .

ويقول الأستاذ براون J.A.C BROWN : « إن إعمال العقل فى أوربا كان أثرًا من آثار الإسلام (٢) .

ويقول المستشرق البريطانى المعروف آربرى (٣) :

« لقد كان الإسلام منذ ظهوره حركةً دينية وسياسية : أى أنه لا يعرف التفريق بين الدين والسياسة ومن ثم يمكن القول إن أول عمل عقلانى فى تاريخ الإسلام تَمثَّل فى انتخاب أبى بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله ﷺ . ويستطرد آربرى : « بل إن الارتباط الوثيق بين الإيمان والعقل واتخاذ العقل ظهيراً للعقيدة ـ عند المسلمين ـ إنما يرجع إلى تعاليم القرآن الكريم وما اشتمل عليه من آيات عديدة تحثُّ على التفكُّر فى خَلْق السماوات والأرض ، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] .

إن المسلم غَنِىٌّ عن التماس الثناء على دينه من الذين لايدينون بعقيدته وإنما اقتطفت هذه المقولات لسكان « الجزر المعزولة » الذين يتحدثون عن عصر العلم وحرية الفكر وتفتُّح الذهن ـ فى معرض سخريتهم من الشريعة الإسلامية ـ وهم

---

(١) محمد أسد (ليوبولد فايس) ، الإسلام على مفترق الطرق ، نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥١ ، ص٤١ .

(2) J.A.C Brown, The Evolution of Society , Thinkers, Library , London, 1947, P.27.

(2) A.J. Arberry , Revelation and Reason in Islam, George Allen and Unwin, London 1957 , P.12.

لا يعلمون أو يدَّعون أنهم لا يعلمون أن الحضارة الإسلامية هى التى فجَّرت هذه اليقظة الفكرية ، وأن علماء الإسلام هم الذين أرسوا دعائم العلم التجريبى وروح البحث العلمى على نحو ما سلف ذكره . ولكن لا بأس من ذكر بعض الأسماء التى ارتبطت بتلك الثورة العلمية . . . هل سمع « سكان الجزر المعزولة » بالكارزمى وأفيرويس ورازز وهيلى أباس أبولكاسس وهيلى رودون وكناموسالى والهازن وأفسينا ؟ لا شك أنهم سمعوا بهم وربما حسبوا أن هذه الكوكبة من العلماء كما كتبت باللغة اللاتينية هم من الأوربيين الذين مهدوا للثورة العلمية الحديثة ولكن بقليل من التأمل نجد أن هذه الأسماء تحريف أعجمى لمحمد بن موسى الخوارزمى (١٦٤ ــ ٢٣٧ هـ) وابن رشد والرازى (أبو بكر) وعلى بن عباس وأبى القاسم خلف بن عباس (توفى ٤٠٤هـ) والحسن بن رضوان وعمار الموصلى والحسن بن الهيثم والشيخ الرئيس ابن سينا .

ومع هذا يتحدث « أصحاب الجُزر» عن إسلام العصور الوسطى وعن الدولة الدينية ودورها فى حجر حرية الفكر (فرج فودَة ، الحقيقة الغائبة ص٩١ ، ٩٢) وهم يعلمون أن تاريخ الإسلام لم يعرف شكلاً من الحكم يسمى « الدولة الدينية » !! إذ اختلط على هؤلاء تاريخ أوربا بتاريخ الإسلام فأقحموا مصطلح «العصور الوسطى » ــ قسراً ــ على التاريخ الإسلامى ليتحدثوا عن الدولة الدينية ومحاكم التفتيش وإحراق العلماء ورجال الفكر ! .

إنهم يريدون أن يقرأوا تاريخ الإسلام من خلال ما سمعوه أو قرأوه عن التاريخ الأوربى الوسيط وما حفل به صراع بين ما سماه الأوربيون السلطة الزمنية والسلطة الروحية وما عاناه المفكرون والعلماء من بطش .

يريد هؤلاء الغلاة من أساطين العلمانية أن يطبقوا تلك الأَحداث على تاريخ المسلمين ليثبتوا أن الإسلام دين لا دولة وأن الدين نفسه خاضع للتغيير والتبديل حتى فى ثوابته وأساسياته ، تبعًا لظروف الحياة المتغيرة ونسوا أن الله سبحانه وتعالى تكفَّل بحفظ القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وتحتدم المعركة بين غُلاة العلمانية الذين صوَّبوا سهامهم نحو الإسلام عقيدة وشريعة وبين الأبرياء من المعتدلين الذين يتبرَّأون مما يقوله العشماوى وزكريا وفودة

وحسين أمين وآخرون من دونهم ، فيقولون كيف يطعن مسلم فى آلهية القرآن ؟ وكيف يفترى على الصحابة رضوان الله عليهم وكيف .. وكيف ؟

ويجىء رد أصحاب التنوير : إنه التطور إنه عصر العلم والتكنولوجيا !! وتقف العلمانية حائرة أمام المجتمع المسلم الذى يرفض ادعاءاتها جملة وتفصيلا وهى تحاول اختراقه كما فعل كرومر من قبل حين عَبَّر عن خيبة أمله فى اختراق العقيدة الإسلامية بمقولته الشهيرة : « لا أمل فى إصلاح الإسلام » .

الانغلاق الفكرى

وصف الدكتور فؤاد زكريا فكرة « الإسلام الشامل » بأنها ذات مظهر برّاق ولكنه يعترض عليها لأنها ـ كما يزعم ـ « تفتح الباب للانغلاق الفكرى والتحجر الحضارى وإغلاق النوافذ أمام المؤثرات الحضارية الخارجية ، بحجة أن هذا غزو فكرى » (الحقيقة والوهم ، ص١٦٤) ومن قبل ردد الدكتور زكى نجيب محمود عبارة فؤاد زكريا بصيغة أُخرى حين قال :

« لعل أهم ما يلفت النظر فى موقف الأمة الإسلامية بجميع أقطارها اليوم هو دعوة تسرى فى جماهيرها بأن توصد أبوابها وتصم آذانها عن حضارة العصر وثقافته باعتبارها غزواً ثقافيًا » [1] .

فدعوة الإسلام الشامل إذن تعنى ـ فى نظر الكاتبين الكبيرين ـ إيصاد النوافذ والأبواب على حضارة العصر !! ولعل الحقيقة التى لم يفطن إليها الكاتبان أن إيصاد النوافذ والانغلاق الفكرى قد يأتى من قبل المفتونين بحضارة العصر ومن المعرضين عنها على حد سواء . ولم يُعرف عن بناة الحضارة الإسلامية ودعاتها أنهم أوصدوا أبوابهم فى وجه أىّ من الحضارات قديمة كانت أم حديثة . ومن ثم يتعيّن على المشفقين من الانغلاق الفكرى أن يبحثوا بين جنباتهم عن هواجس الانغلاق وأن يمعنوا النظر فى مقولاتهم عسى أن يجدوا فيها المؤشرات الحقيقية للتحجر الحضارى .

ولنأخذ مثلاً مقتطفات من حديث الدكتور زكى نجيب محمود وهى تعبير واضح عما يمكن أن نسميه « الانغلاق المضاد » . إنه يقول : « إذا أردنا دستوراً سياسيًا أو تعليميًا أو إصلاحيًا للأسرة أو المجتمع بأية صورة من الصور ، فأىّ طريق نختار ؟ عندى الجواب واضح لا تردد فيه ولا غموض . . . الجواب الواضح هو أن نندمج فى الغرب اندماجًا فى تفكيرنًا وآدابنا وعاداتنا ووجهة نظرنا إلى الدنيا . . . الجواب الواحد الواضح هو أن تكون مصر قطعة من أوربا » وتمنى

---

(١) زكى نجيب محمود ، رؤية إسلامية ، دار الشروق، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ١١ .

الكاتب أن يأتى اليوم الذى يكتب فيه أهل مصر من اليسار إلى اليمين ــ كما يفعل الأوربيون ــ وأن يأكلوا كما يأكلون وأن يفكروا وينظروا إلى الدنيا كما يفعل الأوربيون [1] .

التغريب أو الطوفان :

وفحوى رسالة شيخ « الوضعية المنطقية » فى الوطن العربى إلى المسلمين أنه يضع أمامهم خيارًا واحدًا لا ثانى له هو الاندماج التام فى أوربا أو ما سماه «بالطريق الواضح » . غير أن فؤاد زكريا يزعم أن مشكلة شباب الإسلام المعاصر « هى أنهم لم يطلّعوا فى أغلب الأحيان إلا على وجهة نظر واحدة تقدَّم إليهم بطريقة لا تدع لهم أىّ مجال للشك فيها » .

ولئن سلمنا ــ جدلاً ــ بصدق ما يزعمه الكاتب ، وهو موضع شك كبير ، فما الذى يجعل دعاة التبعية للغرب منفتحين عندما ينطوون على وجهة واحدة لا يحيدون عنها ، ويجعل رواد الفكر الإسلامى الحديث منغلقين عندما يقدمون الإسلام منهجًا للحياة ــ كما أراد له الله سبحانه وتعالى ــ ومن هؤلاء الدعاة الإسلاميين من هو أعلم بالغرب ومجتمعاته وعلومه وفكره وأسلوب حياته ، وأعمق فهما لعطاء الحضارة المعاصرة وأدق نفاذا إلى مواطن الخلل فيها ، من الذين يتمسَّحون بها ويدَّعون الانتماء إليها (فكريًا) ويحضُّون على الاندماج فيها ؟!

ومن عجب أن البدعة التى تقول للمسلمين : « لا تروا إلا ما يرى الغرب » ليست جديدة . فقد ظهرت إرهاصاتها فى نهاية القرن التاسع عشر فى مصر تحت ظل الاحتلال البريطانى وصدع بها الكاتب التركى عبد الله جودت فى الأستانة فى نهاية العقد الثانى ومطلع العقد الثالث من هذا القرن (وجودت من المتأثرين بفلسفة بوخنر الفيلسوف الألمانى المعروف) وحمل لواءها فى مصر سلا ة موسى وطه حسين [2] ولكن البدعة رُدت على أعقابها لأنها بذر غير صالح ، فإذا بدعاة العصرية و«التنوير» يقدمونها اليوم كأنها فتح جديد وقد ألبسوها حلة زاهية من

(١) زكريا نجيب محمود ، شروق من الغرب ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، ص٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٤ص ٣٢.

الانفتاح المزعوم !!

متى كان الإسلام بعمقه وشموله وعالميته ورسالته القائمة على التبليغ ، متى كان دعوة للانغلاق والتحجر والانطواء على الذات ؟

أى انغلاق فكرى أوضح من أن يقول بعض أبناء الأمة الإسلامية ، وقد شرفوا بلسان عربى مبين ، إنهم يحلمون باليوم الذى يكتبون فيه من اليسار إلى اليمين ؟ هلاَّ فكر هؤلاء أن تحقيق هذا الحلم يعنى ــ بالضرورة ــ أيضًا أن يقرأوا من اليسار إلى اليمين ، وأن أهم ما يقرأه المسلم هو آيات الكتاب المبين ، فكيف يتأتى لهم قراءة القرآن الكريم من اليسار إلى اليمين ؟

وكيف يؤلفون باللغة العربية وأقلامهم تتحرك من اليسار إلى اليمين ؟!ولو أن دعاة الانطواء على الغرب قصروا دعوتهم على جدوى التعاون مع الغربيين فى نطاق المنافع الدنيوية المتبادلة ، من تقنية وعلوم تجريبية وتعاون اقتصادى وفنى وتجارى وسياحى ، لأصابوا ولكنهم عموا وصموا وأبوا إلا أن يمسُّوا عقيدة المسلم وقيمه وأخلاقه ومثله ونظمه المستمدة من عقيدته وشريعته ، فأثبتوا بذلك أنهم ليسوا دعاة انفتاح وحوار بين الحضارات ، لأن الانفتاح لا يعنى التبعية فى أية صورة من صورها ، ناهيك عن التبعية الذليلة !! .

فعندما يقول فؤاد زكريا مثلاً [1] : « إن هناك حدودًا معقولة لا يصح أن تتعداها الحياة الدينية عند الإنسان » ، ثم ينصح المسلمين ألا يتعدوا تلك الحدود ، فإنه يمارس التبعية للغرب فى أدق معانيها ، وينصب نفسه واعظًا يبين للمسلمين أمر دينهم على الطريقة الغربية ونسى الواعظ ــ وهو يخاطب أمة الإسلام ــ أن يحرر عقله أولاً من أفكار هنرى سان سيمون (١٧٦٠ ــ ١٨٢٥م) وأوجيست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧م) ثم يحررها ــ ثانيًا ــ من نظريات دور كايم (١٨٥٨ ــ ١٩١٧م) ولفى بريل (١٨٥٨ ــ ١٩٣٧م) وأتباعهما من الذين خاضوا بافتراضاتهم العجيبة فى معتقدات المجتمعات البدائية .

ثم يحررها أخيرًا من أسر الفلسفة الماركسية التى انهارت فى أقل من مائة

---

(١) فؤاد زكريا ، مجلة الحوادث ، ٢٦ ديسمبر ١٩٨٦م .

وخمسين عامًا منذ ظهورها !!

ولعل هذا ما يفسر إسراف فؤاد زكريا في ذكر الأساطير والخرافات والتحريمات، كلَّما تطرق للحديث عن « الصحوة الإسلامية » وابتداعه مصطلحات مبهمة مثل « النص الدينى » فى سياق لا يوضح فيه على وجه التحديد ماذا يعنى بالدين !! فيقول مثلاً : « وهكذا فإن انقياد الجموع الكبيرة من الناس إلى التيارات الدينية التى تركز جهدها على الجانب الشعائرى من الدين على « التحريمات » الجنسية وشكل الملبس ، وتتصور أن أول جوانب تطبيق الشريعة وأهمها هو تطبيق حدود الخمر والسرقة والزنا . . إلخ » [1] وما يسميه الكاتب « بالتحريمات » هو فى الواقع ترجمة لمصطلح (تابو) Taboo الذى كان يردده علماء الاجتماع و«الأنثروبولوجيا » فى القرن التاسع عشر فى دراساتهم عن المجتمعات البدائية وقد ذهبت طائفة من أولئك العلماء إلى القول أن « التوتمية » هى أصل الدين وأن فكرة التحريم (التحريمات) والطقوس والرموز التى نجدها عند القبائل البدائية إنما هى ناجمة عن إيمان القبيلة « بالتوتم » [*] وعلاقتها به [2] .

ويتجلّى اتجاه الدكتور زكريا للربط بين الإسلام وما كتب عن تلك المعتقدات البدائية فى إشاراته المتكررة إلى العناصر الخرافية والأساطير والتراث والتقاليد الموروثة !! فنجده يقول: « فالتراث مثلا يتهم بأنه حافل بالعناصر اللاعقلية والخرافية وأنه محتشد بالغيبيات والأفكار الأسطورية وهذا اتهام يصدق بالفعل على التراث فى جانب من جوانبه » [3] وبعد إضافة فقرة يوضح فيها أن زوال تلك الخرافات رهين بتقدم العلم ، يستطرد الكاتب قائلا :

« وفى هذه الحالة يمكن أن تكون الخرافات والغيبيات مرحلة لابد منها فى المسار الطويل للمعرفة « وهذا ما قال به أوجيست كونت تماما !! ولا يبخل المؤلف

---

(١) فؤاد زكريا ، الحقيقة والوهم ، مصدر سابق ، ص ١٦ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ، ماكر وبيديا ، ١٩٧٨ ، ج١٨ ، ص ٥٣.

(٣) فؤاد زكريا ، الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل ، دار التنوير ، بيروت، ١٩٨٥ص٤١.

* التوتم هو وثن من صنع بعض المجتمعات البدائية .

بإبداء رأيه فى عذاب القبر حيث قال بعد توطئة تحدث فيها عن « مجتمعات صحراوية قبلية تسيطر عليها التقاليد الموروثة وضمنها الإسلام » [1] .

« فهل يحلم بلد مثل أمريكا بوضع أفضل من ذلك الذى تصبح فيه الأجيال الجديدة من أبناء البلدان البترولية فى رعب دائم من عذاب القبر وثعابينه التى تنهش كل من يجرؤ على التساؤل أو النقد أو التمرد على القيم والأوضاع السائدة؟ [2] » .

فهل يمكن لمن يجهر بمثل هذه الآراء أن يكون طرفا فى حوار موضوعى حول الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان؟!

---

(١) فؤاد زكريا ، الحقيقة والوهم ، مصدر سابق ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

بين العلم والدين

يقول الدكتور فؤاد زكريا : إن العلم فى صميمه هو مجموعة من الأخطاء التى يتغلب عليها الإنسان واحدة بعد الأخرى : « وفى هذه الحالة يمكن أن تكون الخرافات والغيبيات مرحلة لابد منها فى المسار الطويل للمعرفة » (١) .

وَرَدَتْ هذه العبارة فى سياق حديث الكاتب عن الصحوة الإسلامية ، فما الذى يُسوِّغ الزج بالخرافات فى موضوع يتعلق بالإسلام ؟ ! ولم ربط الكاتب الخرافات بالإيمان بالغيب وهو أحد الأركان الأساسية للعقيدة الإسلامية ؟ !

الإجابة أن الدكتور فؤاد زكريا يعيش فى عالم اليوم بالعقلية الأوربية فى القرن التاسع عشر، ومن ثم لا يستطيع الحديث عن الإسلام إلا فى إطار الموروثات التى صاغت فكره ، وعبارة الكاتب لا تعدو أن تكون ترديدا لمقولات جيمز فريزر (١٨٥٤ ــ ١٩٤١م) عن الدين والسحر والطلاسم « والتوتمية » وأدونيس ، وهو ــ أى فريزر ــ يشرح كيف أصبح تقدم العلم وسيلة هامة فى تهذيب المبادئ الدينية واضمحلالها وانقراضها (٢) . . !! .

ولو أن الكاتب اكتفى باجترار تلك الأفكار ــ إرضاء لنفسه ــ لهان الأمر ، ولكنه أراد أن يبعث أفكارًا من مرقدها بعد أن ذهبت بذهاب عصرها ، ليقدح بها فى عقيدة الأمة ، فوصف اعتصام المسلمين بدينهم وشريعتهم أو ما سماه « انقياد الجموع الكثيرة من الناس إلى التيارات الدينية !! » ، وصف هذه الأوبة بأنها:

«لا يمكن أن تكون علامة صحة وإنما هى حالة شاذة طارئة وسخر من الأحاديث العامرة بالإيمان التى كان يلقيها الشيخ الشعراوى فى شهر رمضان ، ولم

---

(١) فؤاد زكريا ، الصحوة الإسلامية ، مصدر سابق ص ٢٥ .

(٢) انظر : محمد أحمد بيومى ، علم الاجتماع الدينى ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الثانية ، ص ٩٨ .

ينس أن يتحدث عن المنظور العلمى للعصور الوسطى !!

أقوالهم فى الشريعة :

وجاء دور الشريعة الإسلامية فقال عنها زكريا :

« إن الهدف الأصلى الذى تسعى إلى تحقيقه دعوة تطبيق الشريعة هو هدف يستحيل بلوغه . . فلو بادرنا إلى هذا التطبيق فى ظل الأوضاع الراهنة لارتكبنا فى حق الناس مظالم فادحة . أما لو انتظرنا إلى أن تتهيأ هذه الظروف (أى وصول المجتمع إلى مستوى الكفاية والعدل) لكان معنى ذلك أن مشاكلنا الرئيسية قد تم حلها من قبل بوسائل أخرى وبذلك تختفى الأسباب التى كانت تستوجب تطبيق الشريعة !! . فالشريعة عند هذا الكاتب مرفوضة سواء أطبقت عاجلا أم آجلاً[1] .

أما سعيد العشماوى فيعرف الشريعة بأنها المنهج والسبيل أو الطريق (فقط) ! ويرى أن المسلمين (انحرفوا بلفظ الشريعة إلى غير معناه) والشريعة عنده هى المنهاج الذى يهيمن على الأحكام ويطبعها بطابعه وليست هى الأحكام بحال من الأحوال [2] .

ولم يذكر المؤلف من أين تأتى الأحكام التى يهيمن عليها المنهاج ؟! ومن ثم ذهب إلى أن المسلمين الأوائل ، أى الصحابة غيروا روح الإسلام وبدلوا من صميم الشريعة إذ يقول، وفقا لرواية الدكتور محمد عمارة : « إن المسلم يحزن أن ينحدر المسلمون الأوائل إلى هذا المنقلب الذى غير من روح الإسلام وبدل من صميم الشريعة !! » .

ذلك حديث العشماوى الذى علق عليه الدكتور محمد عمارة بقوله :

« أى أنه ـ يقصد العشماوى ـ يتهم المسلمين الأوائل الذين رضى الله عنهم بنص القرآن ، بأنهم ـ وتحت قيادة رسول الله ﷺ ـ قد غيَّروا روح الإسلام

---

(١) فؤاد زكريا ، الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل ، مصدر سابق ، ص٥٢ .

(٢) محمد سعيد العشماوى ، اصول الشريعة ـ مدبولى ، القاهرة ، ص١٧٨ .

ذاتها» (١) .

ويشرح العشماوى بعد ذلك كيف انتقل مصطلح (الشريعة) من الناموس اليونانى خلال العصور حتى : ورد لفظ الشريعة فى القرآن بمعنى المدخل أو الطريق أو المنهج .. وأخيراً تغير فهم اللفظ فى الفكر الإسلامى (وهذا هو الانحراف الخطير فى نظر الكاتب) فأصبح يعنى النظام الإسلامى الذى يشمل القرآن الكريم والسنة والقياس والإجماع أى يشمل كل التراث الإسلامى من كتاب سماوى وأحاديث وأفعال للنبى ﷺ وإجماع لذوى الرأى وقياس أى مجتهد لاستنباط أى حكم أو قاعدة (٢) .

وصفوة القول : أن المسلمين ، منذ عصر النبوة والصحابة رضوان الله عليهم وحتى يومنا هذا لم يفهموا معنى الشريعة ، حتى ظهر سعيد العشماوى ليفقههم فى دينهم ، ويبين لهم معناها !!

ثم يمضى الكاتب فى تحليل فكرة الدولة فى الإسلام فيقول :

« وحتى وفاة النبى ﷺ لم تنشأ في الإسلام دولة ، وإذا ما اعتبرت حكومة النبى ﷺ في المدينة دولة ، فهى أقرب إلى نظام دولة المدينة عند الإغريق وأصر الكاتب أن يكتبها بالإنجليزية فسماها State of City والصواب أنها تسمى عند الناطقين بالإنجليزيةCity - State (*) .

وغَنىٌّ عن البيان أن من له إلمام يسير بالتاريخ اليونانى القديم وبالتاريخ الإسلامى يدرك أن تشبيه الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة فى عصر النبوة والخلافة الراشدة بالدويلات الإغريقية المعزولة (City-States) فى عصور الوثنية

(١) محمد عمارة ، المشروع الفكرى لسعيد العشماوى ، صحيفة الشعب ، القاهرة ١٦ ديسمبر ١٩٩٤م ص ٩ .

(٢) العشماوى . أصول الشريعة مصدر سابق ص٤٨ .

* للاطلاع علي طبيعة الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، انظر : محمد فتحى عثمان « دولة الفكرة » ، دار القلم ، الكويت . ١٩٧٤م . وللإلمام بطبيعة دولة الإغريق، انظر : فوستل دى كولانج ، المدينة العتيقة (La Cité Antique) ، نقله إلى العربية عباس بيومى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠م ، ص١٥٣ وما بعدها .

City-States) فى عصور الوثنية الغابرة ، ضرب من التدليس السخيف .

وآثر فرج فودة أن يعبر عن رأيه فى دولة الخلافة الإسلامية على مدى القرون، قائلا ــ فى حماس ملتهب : « ونلقمهم (أى دعاة الفكرة الإسلامية) حجراً علمانيا حين نوضح لهم الفرق بين استبداد الحكم الدينى فى العصور الوسطى : عصور الاستبداد والتعذيب والجبروت وعلمانية العصر الحديث ، عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان . . . !! (١) .

وفى غمرة حماسه ، نسى الكاتب أن يذكر الموقع الجغرافى «للحكم الدينى» الذى يشكو منه كما نسى أن يضيف إلى وثيقة اتهاماته :

محاكم التفتيش (*) Inquisttion «وصكوك الغفران» . وهى أحداث شهدها التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى ولا صلة لها بالدولة الإسلامية ولا بتاريخ المسلمين ولا بالعالم الإسلامى .

---

(١) فرج فودة ، الحقيقة الغائبة ، مصدر سابق ، ص ١٠٠ .

(*) الصواب أن تسمى محاكم التحقيق ، كما لاحظ ذلك الدكتور عمر فروخ .

الدين والدولة فى الإسلام

تهافت العلمانية :

لعله من نافلة القول أن نؤكد أن « الفكرة العلمانية » دخيلة على الوطن الإسلامى ، وهى فى حقيقتها أثر من آثار الغارة الأوربية الحديثة على ديار الإسلام ، ولم يستطع دعاة الفكرة أن يجهروا بها إلا فى ظل الحماية الأجنبية ، فظهر الشيخ على عبد الرازق ناطقا باسمها فى مصر عندما أصدر كتابه «الإسلام وأصول الحكم » سنة ١٩٢٥ (١) ونضح أسلوبه باضطغان مرير على الدولة الإسلامية منذ تأسيسها فى عصر النبوة والخلافة الراشدة حتى سقوط الدولة العثمانية في عام ١٩٢٤ م . وقصارى ما كان يرمى إليه الشيخ عبد الرازق أن يجد مسوغا للفصل بين الدين والدولة فى دار الإسلام وهو ما كانت الدول الأوربية تسعى إليه وبخاصة بريطانيا لتضفى ثوبا من الشرعية على احتلالها الأقاليم العربية التى كانت تدين بالولاء للخلافة العثمانية غير أن صيحة الشيخ عبد الرازق لم تجد قبولا وقيض الله لها أقلاما مؤمنة قضت عليها فى مهدها.

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى صبرى ومحمد الخضر حسين ومحمد بخيت المطيعي ورشيد رضا والغمراوى وعندما قوى ساعد الحركة الإسلامية فى مصر والاحتلال البريطانى فى ذروة طغيانه ــ ظهر كتاب الشيخ خالد محمد خالد «من هنا نبدأ » فى عام ١٩٥٠ (*) وهو يكاد يكون نسخة مطابقة لكتاب «الإسلام وأصول الحكم » (٢) ولم يكن مصير ما حواه من مزاعم بأفضل من مصير ادعاءات

(١) انظر:على عبد الرازق، «الإسلام وأصول الحكم»، الطبعة الأولى، مطبعة مصر ١٩٢٥.
(*) وقد ردّ عليه الشيخ محمد الغزالى بكتابه « من هنا نعلم ».
(٢) خالد محمد خالد : من هنا نبدأ ، دار الكتاب العربى ، بيروت، الطبعة الحادية عشرة ١٩٦٩. ظهرت الطبعة الأولى فى القاهرة عام ١٩٥٠ .

على عبد الرازق غير أن الشيخ خالد تبرأ ـ فى كتاب لاحق ـ من كل ما قاله فى كتابه الأول [1] .

ثم بُعثت الفكرة من مرقدها خلال العقدين الماضيين لمواجهة ما سماه الغرب «باليقظة الإسلامية » وقد رأينا ـ فى الصفحات السابقة ـ نماذج من الفكر العلمانى فى أحدث صوره ، وقد اكتسب سمات جديدة من الغلو والإسفاف تجاوزت قصة الفصل بين الدين والدولة إلى المساس بالعقيدة .

ويلحظ القارئ فى هذا النهج الجديد أن الناطقين بلسان العلمانية أضحوا يرددون أفكارا قديمة ويثيرون قضايا فرغ الناس من حسمها منذ أمد بعيد ، ويسوقون حججا أوهن من خيط العنكبوت وعبارات تطفح بالافتراء، وتنضح جهلاً وفحشًا فى القول ، عند بعضهم ، كما نري فى أسلوب فرج فودة [2] حيث يقول : «إننى منعت نفسى كثيرا من الخوض فى بعض الأحداث تجنبا لفحش فى القول أو مبالغة فى المجون » ولكن الصفحات (من ١١٨ إلى ١٣١) من الكتاب ذاته تثبت ما أراد أن يعتذر عنه !

الإسلام دين ودولة :

لم تكن قضية الدين والدولة تمثل هاجسا في العالم الإسلامى ، لأنها حُسِمت منذ انعقاد الخلافة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ولم يختلف علماء الإسلام وفقهاؤه فى موضوع الإمامة أو الخلافة من حيث وجوبها ، وإنما تساءلت قلة منهم، أهى واجبة بالشرع أم بالعقل ، وفى ذلك يقول ابن خلدون :

« إن نصب الإمام واجب فى الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ ، عند وفاته ، بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتسليم

---

(١) نفى الأستاذ خالد محمد خالد كل ما قاله في هذا الكتاب، فى كتاب له بعنوان «الدولة فى الإسلام» دار ثابت للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، يناير ١٩٨١م.

(٢) انظر : فرج فودة ، الحقيقة الغائبة ، مصدر سابق ، ص ١٤٠ ثم ١١٨ ، ١٣١ .

النظر إليه فى أمورهم وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعا دالاً على وجوب نصب الإمام» (١).

ثم يوضح ابن خلدون ما دار من حوار حول الوجوب أهو بالشرع أم بالعقل قائلا : لقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب لا بالعقل ولا بالشرع، وهم بعض الخوارج والمعتزلة (٢) .

ومع ذلك زعم فرج فودة أنه ــ بعد الدراسة ــ توصل إلى نتائج هى :

١ ــ أن الخلافة التى نعتوها بالإسلامية هى فى حقيقتها خلافة عربية قرشية ــ وهذا عين ما قاله المستشرق فلهاوزن فى كتابه «المملكة العربية » وما قاله على عبد الرازق.

٢ ــ « أن الإسلام دين لا دولة وعلى المحتج علينا بالعكس أن يرد علينا بحجة التاريخ » (٣) ومما يجدر ذكره أن هؤلاء العلمانيين كانوا أول من هاجم أبا بكر الصديق ونصبوا أنفسهم أوصياء عليه وهو يصرف أمور الدولة ، لأنه اتخذ قرارات هامة في حروب الردة ، وقاتل مانعى الزكاة وهى ــ بزعمهم ــ قرارات فيها نظر !!

ويشيرون إلى مخالفة أمير المؤمنين عمر لرأى أبى بكر رضى الله عنهما، فى قتال مانعى الزكاة ،ولكنهم ، لم يذكروا قط ما قاله عمر لأبى بكر بعد أن ثبت له صواب رأى الصديق فى قتال المرتدين إذ قال الفاروق للصديق : «لولا أنت لهلكنا» ومما قاله أبو بكر لعمر فى هذا الصدد «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، يابن الخطاب : رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ؟ أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحى وتم الدين أوَ ينقص وأنا حى؟!».

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، دار الجيل ، بغير تاريخ ، بيروت ص ٢١١ ، ٢١٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .
(٣) فرج فودة ، الحقيقة الغائبة ، مصدر سابق ص ١٣٣ .

وفى هذا يقول عباس محمود العقاد :

« وجاءت حروب الردة التى هى مفخرة أبى بكر الكبرى غير مدافع .. وهكذا قُدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة فى سياساتها الداخلية وسياستها الخارجية » (١) .

وبعد هذا يجىء محمد سعيد العشماوى ليقول إن أبا بكر لم يقتنع برأى عمر، « وأصر على محاربة القبائل التى امتنعت عن دفع الزكاة له !! (كذا) مخالفا بذلك رأى عمر بن الخطاب !! » (٢) .

وقال فرج فودة : إن جاز لأبى بكر قتالهم وقتْلهم فإنه يجوز للبعض أن يخرجوا علينا مقاتلين وقاتلين (الحقيقة الغائبة ص٤٣) وأخيراً فسر فودة قرار الصديق بحرب مانعى الزكاة بأنه قرار سياسى!! ص (٤٤) ومع ذلك فهو يطلب دليلا على أن الإسلام دين ودولة !! .

وما يثير العجب أن الشيخ عبد الرازق وصف خليفة المسلمين أبا بكر الصديق رضى الله عنه بأنه كان أول ملك فى الإسلام !! فى معرض ادعاءاته المذكورة.

---

(١) عباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣ ص ١٥٢ ، ١٥٩.

(٢) محمد سعيد العشماوى ، أصول الشريعة ، مصدر سابق ، ص ١٥٠ ــ ١٥١ .

الهجمة على الخلفاء الراشدين

«ولا يترك المستشار عشماوى لقارئه مجالا للشك فى أن تشويهه لصورة الإسلام ــ بل لمعالمه وروحه وعقيدته وشريعته ــ ودعواه تبديل وتغير هذا الدين، منذ عصر المسلمين الأوائل ، لا يترك شكا فى أن دعواه هذه مؤسسة على مطاعنه فى ذات المنابع الجوهرية لهذا الدين وفى مقدمتها الوحى الآلهى المتمثل فى القرآن الكريم » .

د. محمد عمارة، المسلمون ــ العدد ٥١٥ بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٩٤م.

وبعد التشكيك فى منابع الدين وقواعده الأساسية ــ على نحو ما ذكر الدكتور عمارة ــ انتقل العشماوى وزمرته إلى الطعن فى صحابة رسول الله ﷺ ، الذين آزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وذادوا عن الإسلام ومكّنوا له فى الأرض فقضوا على ردة المرتدين واستأصلوا شأفة المتنبئين وحفظوا القرآن الكريم بجمْعه وتوحيد رسمه ، من أجل ذلك انطلقت ألسنة المرجفين (رموز العلمانية الحديثة) تندد بالصديق أبى بكر رضى الله عنه وبأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بصفة خاصة لأنهما جمعا القرآن وأجرى الله على أيديهما حفظه، تصديقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وكان الجمع الأول فى خلافة أبى بكر والثانى فى خلافة عثمان رضى الله عنهما.

وفى هذا يقول الإمام أبو بكر بن العربى المالكى ، صاحب كتاب «العواصم من القواصم » حتى إذا نسخوا الصُّحُف ــ فى عهد عثمان ــ ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة رضى الله عنهما ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة ومصحف أن يحرق . . وأما ما روى أنه أحرقها أو خرقها ، وكلاهما جائز ، إذا كان فى بقائهما فساد أو كان فيهما ما ليس من

القرآن . . . إلخ [1] .

وقد أثار «البغاة» الذين قتلوا عثمان ، قضية جمع القرآن بحسبانه عملا يؤاخذ عليه أمير المؤمنين وهم الذين حضّهم اليهودى عبد الله بن سبأ على الفتنة التى انتهت بمقتل أمير المؤمنين ـ ومازال رموز العلمانية يثيرون هذا الحديث فى مؤلفاتهم واتخاذه منفذا للطعن فى القرآن الكريم وفى سيرة ذى النورين رضى الله عنه .

والعشماوى أحد الذين نددوا بجمع المصحف فى عهد عثمان وطعنوا فيه، زاعما أن عثمان رضى الله عنه «قد أغلق باب الحرية على من يريد التعبير عن معانى القرآن بألفاظ أخرى كما وصف إجماع الصحابة فى رسم المصحف على حرف واحد بأنه كارثة وجناية أصابت العقل الإسلامى بالهزيمة » [2] .

لقد أهدر « البغاة » دم أمير المؤمنين عثمان بن عفان بسلاحهم وجاء غلاة العلمانية المحدثون ليهدروا تاريخه ومآثره :

فقال فرج فوده : « إن عثمان قتل على أيدى المسلمين الثائرين المحاصرين لمنزله . . وبإجماع منهم ؟ ولم يذكر لنا اسم واحد منهم. . «وكلمة » إجماع منهم قد تُنبئ بأنهم هم أهل الحل والعقد أو على الأقل لهم مثل ما لأهل الحل والعقد! ! بينما يوضح لنا ابن العربى المالكى حقيقة هذه الفئة التى ألبها عبد الله ابن سبأ ،وكان المسلمون يسمونهم « البغاة » فقال عنهم : « وقد سموا (أى ذكرت أسماؤهم) من قام عليه ـ أى من ثار على عثمان ـ فوجدناهم أهل أغراض وسوء، حيل بينهم وبينهما ، فوعظوا وزجروا ، فأرسل بهم إلى عثمان

---

(١) أبو بكر بن العربى ، العواصم من القواصم ، دار الجيل ، بيروت، ١٩٨٧ ، ص ٨٣.

(٢) المسلمون ، العدد ٥١٥ بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٩٤م.

فتابوا ، فخيرهم ، أى فى المكان الذى يريدون أن ينصرفوا إليه ، فلما سار كلٌّ إلى ما اختار ، أنشأوا الفتنة وألبوا الجماعة» .

وقال عنهم محب الدين الخطيب :

« أما الذين استطاع عبد الله بن سبأ وتلاميذه أن يوقعوهم فى حبائل الفتنة فبينهم وبين مستوى أهل الشورى أبعد مما بين الحضيض والقمة بل أبعد مما بين الشر والخير « وقال شيخ الإسلام ابن تيمية » إن خيار المسلمين ، لم يدخل واحد منهم فى دم عثمان ولا قبل ولا أمر بقتله ».

ثم ذكر المعلق شيئا عن طبيعتهم فقال:

« وإنما قتلته طائفة من المفسدين فى الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن.. إلخ [1] .

وقال العشماوى عن قتل عثمان « وقتل عثمان .. وهو يقرأ المصحف وقاتلوه ممن شاهدوا النبى ﷺ وعاصروا النبوة » أصول الشريعة (ص١٦٧).

وقال حسين أحمد أمين فى معرض الهجوم على أمير المؤمنين : «وقد اتهمه هؤلاء الخصوم بأنه حذف من مصحفه كلمات (انظر صفحة ٢١) ، منها: «بلى إن عليا لهو الهدى « وزعموا ــ والحديث ما زال لحسين أحمد أمين ــ أنه حذف اسم عمر واستبدل به فلانا (*) فى الآية الثلاثين من سورة الفرقان ، وأنه أخفى (أى عثمان) سورة الفرقان ، [دليل المسلم الحزين ص ٤٨] وسورة قصيرة كاملة على غرار سورة المسد » .. ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ

---

(١) العواصم من القواصم ، مصدر سابق ، ص ٨٣ هامش (٥) ..

(*) كلمة (فلانا) جاءت فى الآية الثامنة والعشرين من سورة الفرقان وليست الآية الثلاثين كما ادعى المؤلف.

إلاَّ كَذِبًا .... ﴾ ولم يعلق المؤلف بأية كلمة على هذا السخف . ولم يشر إلى رأى علماء الدراسات القرآنية الذين تصدوا لتفنيد أباطيل المرجفين (*) .

(*) انظر : أسفل ص ٢٢ .

حروب الردة فى فقه العلمانيين

لم يترك غلاة العلمانية الحديثة بابا لتشويه الإسلام إلا طرقوه وهم يعلمون أن خطابهم لم يجد أذنا صاغية فى المجتمع الإسلامى على مدى قرن من الزمان .

ومن ثم جاء هجومهم على خلافة الراشدين فى سياق تطلعهم إلى هدم الدولة الإسلامية والتنديد بها . . ولما كانت خلافة الصديق أبى بكر رضى الله عنه تمثل وحدة الدين والدولة فى أعلى درجاتها وأطهر صورها ، فقد طاب لهم أن يتخذوا من حروب الردة منفذا للتجنى على أول خليفة للمسلمين والتدخل فى صميم اختصاصاته وهو يرسى دعائم الدولة الإسلامية .

يقول الأستاذ العقاد : « تأسست الدولة الإسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث فشرع السنة الصالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح ، فكان له السبق على خلفاء الإسلام فى هذين العملين الجليلين » [1] .

ووقف الصحابة رضوان الله عليهم وراءه يشدون أزره بكل ما يملكون وتقدم حفظة القرآن الكريم «القراء » صفوف المجاهدين للقضاء على الردة فى مهدها واستشهد منهم العدد الكثير حتى أشفق عمر رضى الله عنه على ضياع القرآن إن استحر القتل بعد وقعة اليمامة وذهب ما بقى من القراء «الحفظة » ، والقرآن فى صدورهم فأشار على أبى بكر بجمع القرآن أى من المواد التى كان مدونا فيها فى حياة رسول الله ﷺ وهى العسب والألخاف والأكتاف والأقتاب «فكان الجمع الأول للقرآن الكريم فى عهد الصديق [2] .

---

(١) العقاد ، عبقرية عمر ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٤٢، ص ١٩٠.

(٢) العسقلانى ، فتح البارى ، ج ٩ مصدر سابق ص ٦٣٥ وما بعدها.

لقد بدأت الحملة العلمانية على دولة الإسلام على يد الشيخ على عبد الرازق منذ سبعين عاما عندما اتهم جمهور المسلمين الذين اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة بأنهم كانوا يتآمرون عمنْ يولونه أمرهم [١] .

وعندما انتخب أبو بكر رضى الله عنه ـ بالإجماع ـ خليفة للمسلمين ، قال على عبد الرازق : « وكان من أثر ذلك أى «المؤامرة» ما كان من تنافس حتى تمت البيعة لأبى بكر فكان هو أول ملك فى الإسلام [٢] .

ثم شرح الشيخ عبد الرازق طبيعة هذا الملكية «أى خلافة أبى بكر » قائلا :

«وإذا رأيت كيف تمت البيعة لأبى بكر تبين لك أنها بيعة سياسية ملكية [٣]. تلك دولة ـ والحديث للشيخ ـ لا تخرج عن أن تكون دولة عربية أيدت سلطان العرب وروجت لمصالح العرب ومكّنت لهم فى الأرض فاستعمروها استعمارًا واستغلوا خيرها استغلالا شأن الأمم القوية التى تتمكن من الفتح والاستعمار»[٤] .

وتوطئة لإدانة حكومة الصديق رضى الله عنه والبحث عن مسوغ لحركة الردة، يقول على عبد الرازق : « كان معروفا للمسلمين يومئذ أنهم إنما يقدمون على إقامة حكومة مدنية دنيوية لذلك استحلوا الخروج عليها » (ص١٨٥) من هم أولئك المسلمون ؟ .

وهنا يجيب الإمام الطبرى قائلا : « لما بويع أبو بكر رضى الله عنه وجمع الأنصار . . . قال ـ أى أبو بكر ـ « ليتم بعث أسامة وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة فى كل قبيلة ونجم النفاق » [٥]. ثم ذكر الطبرى من أسماء القبائل

(١) على عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم، الطبعة الأولى، مصدر سابق ص٩٢ ،٩٣ .
(٢) الإسلام وأصول الحكم ، طبعة منشورات دار الحياة ، بيروت ، بغير تاريخ ص ١٨٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ٨٤ـ١ .
(٤) نفسه .
(٥) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، مكتبة خياط، بغير تاريخ ، ج٣، ص٢١٣ ، ٢٢٥، ٢٢٦ وما بعدها .

المرتدة . . بنى عبد مناة والألوية التى عقدها أبو بكر وهى أحد عشر لواءً لقتال المرتدين نذكر منهم على سبيل المثال : لواء خالد بن الوليد ولواء عكرمة بن أبى جهل ولواء ابن أبى أمية ولواء العلاء بن الحضرمى. . . إلخ (١) .

كذلك أورد الإمام الطبرى صيغة الرسائل التى بعث بها أبو بكر رضى الله عنه إلى المرتدين وإنذاره لهم.

وأخيرًا يجىء المستشرق اليهودى «برنارد لويس» للدفاع عن المرتدين ويفسر خروجهم على الدولة الإسلامية تفسيرا سياسيا على نحو ما فعل على عبد الرازق ومن سلك طريقه من بعده .

ولم يذكر لويس شيئا عن الألوية التى عقدها أبو بكر رضى الله عنه لمقاتلة المرتدين ولا رسائل أبى بكر التى بعث بها إليهم مع قادة الألوية، وتأكيد أن ما فعلوه إنما هى ردّة . وفحوى التفسير السياسى الذى قدمه لويس أن بعض القبائل ثارت على خليفة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ إيمانا منها أن صلتها برسول الله ﷺ كانت وفاء بعقد بينه وبينها وقد انتهى العقد بوفاته ﷺ إلا إذا شاء أبو بكر رضى الله عنه أن يعقد معهم اتفاقا جديدا ومن ثم امتنعوا عن دفع الزكاة فحاربهم أبو بكر (٢) .

أما سعيد العشماوى فيقول : « إذا كان أبو بكر قد أصرَّ على رأى خالف فيه غيره ــ يعنى عمر رضى الله عنه ــ فمن ذا الذى يستطيع أن يجزم أنه لم يخطئ فى التفسير ولم يختل منه التقدير » (٣) .

والحقيقة التى أخفاها الكاتب أن عمر رضى الله عنه استصوب رأى أبى بكر

---

(١) الطبرى ، المصدر السابق .

(2) Bernard Lewis, The Arabs in History, Hutchinson University Library , London , 1960, P.151.

(٣) العشماوى ، أصول الشريعة ، مصدر سابق ، ص ١٥١ .

فيما بعد، وأقبل عليه يُقبل رأسه ويقول له : «أنا فداك ولولا أنت لهلكنا ».

ويستطرد العقاد قائلا :

« وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام فى حروب الردة غير مدافع فهو فيها صاحب الشرف الأول بين ذوى الرأى وذوى العمل فى تلك الحروب وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعا على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم ، والتقبيل »[١] . فهل نحتاج بعد هذا أن نبحث عن مزيد من دوافع العلمانية فى تنديدها بالصديق وهو : ﴿ **ثانى اثنين إذ هما فى الغار** ﴾ الآية.

(١) العقاد ، عبقرية الصديق ، مصدر سابق ص ١٥٠ ، و ص ١٥٥.

ظلال الاستشراق والتطاول على الإسلام

لم يعد العلمانيون يحفلون كثيراً أو قليلا بصحة ما يقولون عن الإسلام ولو كانت مقولاتهم ركاما من السخافات التى تدحضها حقائق التاريخ ، ومن هنا عجزوا عن الالتزام بأدب الحوار فى تناول القضايا الإسلامية واستنصروا بأراجيف المستشرقين التى قضى عليها علماء الإسلام منذ وقت طويل..

فما ينفثه العشماوى وحسين أحمد أمين وغيرهما من أباطيل إنما هو ترديد لتلك الأراجيف الاستشراقية، ومن أسخف ما نقله محمد سعيد العشماوي من تقاليد الاستشراق افتراضه صلةً بين العقيدة الإسلامية والمجتمع الجاهلى فى جزيرة العرب ينفذون من خلالها إلى تفسير الإسلام ومعتقداته تفسيرا يلقى عليها ظلالا من الوثنية ورواسبها وهذا عين مافعله العشماوى فى كتابه «أصول الشريعة» عندما تحدث عن فريضة الحج قائلا :

« فدراسة ما قبل الإسلام ليست مما ينهي عنه الإسلام بل هى ما يأمر به ثم يستطرد فى حديثه : « وإن هذه الدراسة تسفر عن أن الشريعة الإسلامية لم تكن منقطعة الصلة بالماضى منبتة الجذور عن المجتمع الذى تنزلت فيه بل إنها أخذت من قواعد المجتمع وأعرافه وعوائده ما أصبح أحكاما فيها (١) .

ولم يذكر الكاتب المصدر الإلهى للشريعة ولا أركان الإسلام ، قبل الإشارة إلى أعراف المجتمع وعوائده لأنه كان ــ فيما يبدو ــ يوطئ لمقولة ضالة ، عن الحج ما لبث أن أطلقها من غير حياء قائلا : «والحج كان شعيرة جاهلية تغيرت قبلتها بعد الإسلام، فصارت الوجهة إلى الله سبحانه وتبدل المضمون فلم تعد التجارة هدف الحج !! انتهى حديث العشماوى (٢) .

---

(١) العشماوى ، أصول الشريعة ، مصدر سابق ، ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

بمثل هذا الافتراء والتدليس خطت العلمانية نحو أركان الإسلام حاملة معاول الهدم.

وصَمَتَ العشماوى فلم يذكر شيئا قط عن إبراهيم الخليل أبى الأنبياء عليه السلام ولا عن ابنه إسماعيل عليه السلام ، حتى ليحسب القارئ أن الكاتب لا يعرف شيئا عن بناء «البيت » ومقام إبراهيم والآذان بالحج ، وكأن فى أذنيه وقرًا حال بينه وبين الاستماع إلى آيات القرآن الكريم ودعاء إبراهيم الخليل :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج : ٢٦ ـ ٢٨] .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم : ٤٠ ـ ٤١] .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقر: ١٢٥] .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

تلك هى فريضة الحج التى خاض فيها العشماوى ليربطها بالمجتمع الجاهلى الوثنى، فقلب الحقائق رأسا على عقب.

إن الجاهلية هى التى بدلت دين إبراهيم وارتكست إلى الوثنية، فتحريف عرب الجاهلية لا يجعل الحج شعيرة جاهلية كما زعم المؤلف.

عودة الوثنية :

يحدثنا هشام الكلبى صاحب كتاب «الأصنام» أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام ، فنصب الأوثان وسيَّب السائبة ووصل الوصيلة وبحَّر البحيرة وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة الأزدى وهو أبو خزاعة (١) (*).

ثم يوضح كيف ارتدت عرب الجاهلية إلى عبادة الأوثان بقوله : «وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلَّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم به . . ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا . . واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان . . إلخ (٢).

ومع ذلك كانت فيهم (أى عرب الجاهلية) كما يقول هشام الكلبى «بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة . . مع إدخالهم فيه ما ليس منه » (٣) .

وكان رسول الله ، فى حجة الوداع يرشد المسلمين ويبين لهم مناسك الحج

---

(١) أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى كتاب « الأصنام » تحقيق أحمد زكى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(*) حديث عمرو بن لُحى وأنه أول من بدل دين إسماعيل أخرجه البخارى فى (كتاب المناقب) وفى (كتاب التفسير) فى سورة المائدة ، ومسلم فى (كتاب الجنة) ومسند أحمد ١٤/١٢٦ تحقيق أحمد شاكر ، ط دار المعارف.

(٣) المصدر نفسه (كتاب الأصنام) .

تصويبا لمخالفات قريش فى الجاهلية فقال وهو بعرفة : « **الزموا مشاعركم فإنكم على إرث من إرث إبراهيم** » وقال ﷺ : «**إن قريشا خالفت هدى إبراهيم** » (١) .

ونزل عليه وهو واقف بعرفة : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

تعليق سيد قطب :

يقول صاحب « فى ظلال القرآن » الشهيد سيد قطب فى معرض حديثه عن بناء البيت الحرام :

« فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره فى جوه المناسب . . لتقرير وحدة الدين الإلهى وإطراده على أيدى رسله جميعا ونفى الاحتكار عنه فى أيدى أمة أو جنس . . وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته لأنهم فقدوا حقهم فى وراثة بانى البيت وراعيه منذ أن حادوا عن طريقته ونقضوا عهده مع الله فى ذريته وبنيه » (٢) وصدق الله العظيم : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٢] .

---

(١) المقريزى ، إمتاع الأسماع ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١، ص ٥٢٣ .

(٢) سيد قطب « فى ظلال القرآن » عيسى البابى الحلبى، القاهرة ، الجزء الأول، الطبعة الأولى، ص ٨٠ ـ ٨٢.

الاستغاثة بعصر التنوير الأوربى!!

يبدو أن هناك جيلا كاملا من الرموز الثقافية قد أذنت شمسه بالمغيب وأصبح يعانى من الخواء الفكرى والإحباط الروحى ، وسوف لا تسلم الثقافة وحيويتها فى ديار العرب قبل أن يدرك هؤلاء (المأزومون) أن الصمت وإعلان الإفلاس خير ألف مرة من محاولة تدمير البيئة الثقافية للإنسان العربى وبث الألغام فى طريق الحياة الفكرية لأجيالنا الجديدة .

جمال سلطان : أزمة الثقافة العربية ، المسلمون ١٦/١٢/١٩٩٤ العدد (٥١٥).

عصر التنوير :

شهدت القارة الأوربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حركة فكرية ناشطة، قوامها ثلة من الصفوة المثقفة فى بلاد الإنجليز ، أصدرت عددا من المطبوعات فى شكل سلسلة ، تعرضت فيها للعقيدة النصرانية بهجوم عنيف (نحو عام ١٧٠٠م) فكان نشاطهم بداية لما عرف فى تاريخ الفكر الأوربى بحركة التنوير (Enlightenment) التى اتسع نطاقها حتى شملت القارة الأوربية (فرنسا وألمانيا) واتخذت الحركة من الهزة التى أصابت الكنيسة الكاثوليكية إثر ظهور المذهب البروتستنتى على يد مارتن لوثر والنظريات العلمية التى انطلقت بعد عصر النهضة واكتشاف ما سمى بالقانون الطبيعى على يد العالم الهولندى هوجو جروتيتس (١٦٢٦م) واكتشافات جاليليو ونيوتون وكوبرنيكس، اتخذت من كل ذلك ذريعة للانقضاض على المعتقدات الدينية الموروثة فى أوربا والسخرية منها، وإزاء الحرج الذى واجه علماء اللاهوت الأوربيين من جراء الثورة العلمية، وعجزهم عن الوقوف أمامها وأمام نظرياتها العلمية ، واصل التنويريون ، هجومهم على ما سموه بالدين التقليدى ، زاعمين أنهم اهتدوا إلى ما عرفُوه بالدين الطبيعى. وفحواه أن الإنسان متدين بفطرته يعرف ربه وخالقه ويعبده ولكنه (أى الإنسان) فى غِنىً عن الرسل والأنبياء والكتب المنزلة والكنيسة!! ومن هنا أطلق توماس بين

(Thomas Paine) على ذلك العصر « عصر العقل » فى كتاب أصدره بذات العنوان عام ١٧٩٤م ـ ١٧٩٦م . استبعد فيه العقيدة الموروثة كما جاءت فى كتبهم المقدسة، ودعا إلى إسقاط الميتافيزيقا والاعتماد على العقلانية وإنكار النبوة والوحى والكتب المنزلة والمعجزات الإلهية لأنها فى نظره تعطل قوانين الطبيعة (١).

ومن أشهر قادة التنوير فى إنجلترا ديفِد هيوم (ت١٧٧٦م) الذى أصدر كتابا عن إنكار المعجزات « بحث فى المعجزات » ١٧٤٨م وسخر منها، ومن قادتها في فرنسا ديديرو (ت١٧٨٤م) وفولتير وكونديلك.

وقد مهدت حركة التنوير بإنكارها الأديان المنزلة من عند الله ، والنبوة والوحى، مهدت لظهور الفلسفات الإلحادية واللاأدرية فى أوربا فى القرن التاسع عشر على لسان الفيلسوف الألمانى بوخنر وكارل ماركس ، وأوجيست كونت ودوركايم من دعاة الفلسفة الوضعية .

ذاك هو عصر التنوير الذى تريد العلمانية أن تعيد صورته فى العالم الإسلامى لمواجهة اليقظة الإسلامية الحديثة ولتجعل من الاحتلال الأوربى لديار المسلمين بداية لتاريخ التنوير وفى هذا يقول أحد الكتاب المعاصرين :

« فجأة ودفعة واحدة امتلأت الساحة الفكرية والصحفية فى الوطن العربى بدعوات صاخبة تعتمد (التنوير) منهجًا لها وواكب ذلك الاحتفاء مرور مائة عام على إنشاء مجلة عربية حملت لواء التغريب والغزو الفكرى منذ صدورها الأول فى عام ١٨٩٢ . . هذا التنوير الذى يعزل الدين عزلا كاملا أو يلغيه إلغاء شاملا . . ويربط هؤلاء عملية التنوير ببدء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م)!! انتهى (٢).

عجز وإفلاس :

وإن دلت مساعى دعاة التنوير على شيء فإنما تدل على أزمة الفكر العلمانى

---

(١) انظر : دائرة المعارف البريطانية الكبرى ، شيكاجو ١٩٧٨م المجلَّد السادس ، ص٨٨٦ ـ ٨٨٩.

(٢) صحيفة « المسلمون » ، مقال التنوير الإسلامى والتنوير العلمانى، بقلم عبد القادر الإدريسى، العدد (٥١٥)، بتاريخ ١٦/١٢/١٩٩٤م.

وحيرته التى دفعته إلى الاستغاثة بأفكار القرن السابع عشر فى أوربا لمواجهة الفكر الإسلامى الحديث . . !!

من أجل ذلك صدرت سلسلة من الكتب فى عاصمة قطر عربى سُميت «كتب المواجهة» ـ مواجهة من ؟ كما سميت « سلسلة التنوير » تنوير من ؟ وهى صادرة عن مؤسسة هيئة الكتاب بالقاهرة ، وقد صدر منها ما جاوز الستين كتابا فى طبعة جديدة وفخمة ، لعلها تجذب القارئ !! وذُكِر أنها توالت فى الصدور منذ النصف الأخير لعام ١٩٩٣ م وأنها صدرت خصيصا للرد على المستوى الفكرى الذى يعيش فيه أولئك الذين لا يحملون إلا ثقافة واحدة هى ثقافة الظلام . . فجاءت هذه السلسلة لتعيد إلينا (أى إلى العلمانيين) هذه الباقة من الكتابات التى كُتبت بهدف التنوير والتغيير منذ قرن أو يزيد » !! (١) .

وبالاطلاع على بعض أسماء المؤلفين الذين نشرت لهم مؤلفات تنويرية ، لمعت أسماء سلامة موسى وفرح أنطون وقاسم أمين وزكى نجيب محمود وطه حسين وعلى عبد الرازق .

ولابد أن نذكر شيئا عن بعض هؤلاء الكتاب حتى نكون على بينة من طبيعة هذا التنوير :

ففرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م) ورفيقه شبلى شُميل (١٨٦٠ ـ ١٩١٧م) كانا من أبكار الدعاة إلى فصل الدين عن الدولة فى ديار المسلمين ومن أعلام الفكر العلمانى فى عهد الاحتلال البريطانى . ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد عن فرح أنطون : « كان من أسباب فشله وكساد مجلته «الجامعة» رأيه الذى ارتآه فى كلامه عن ابن رشد ذاهبا فيه إلى انتقاد الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الخلافة الإسلامية » (٢) .

---

(١) انظر : الأهرام ، أول فبراير ١٩٩٤م، مقال الدكتور مصطفي عبد الغنى ، «سلسلة كتب المواجهة مع من ؟ وكيف ؟ ».

(٢) العقاد، رجال عرفتهم، كتاب «الهلال» العدد (١٥١) أكتوبر ١٩٦٣ص ٢٠٣ .

أما كتب سلامة مُوسى التى أصدرها فى الربع الأول من هذا القرن وهجومه على الدين واللغة العربية الفصحى.. إلخ فتكفى للتعريف بشخصيته وفكره . إنه الداعية إلى كتابة العربية بالحرف اللاتينى ، وطه حسين هو مؤلف كتاب « فى الشعر الجاهلى » عام ١٩٢٦ الذى أساء فيه إلى الإسلام وأثار ضجة فى الدوائر العلمية والسياسية ليس هذا مجال الحديث عنها وهو صاحب كتاب .. « الفتنة الكبرى» !!

وزكى نجيب محمود هو مؤلف كتاب « خرافة الميتافيزيقا » وصاحب الدعوة الجريئة إلى تقليد الغرب بل الاندماج فيه .. وعلى عبد الرازق مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذى سلف الحديث عنه .

إن استغاثة العلمانيين بعصر التنوير الأوربي تمثل قمة العجز والاحتضار والخواء الفكرى والروحى .

ثقافة التنوير إلى من توجه ..؟

لئن خاطب دعاة التنوير قومهم في أوربا منذ ثلاثة قرون ، لإخراجهم من ظلمات عصورهم الوسطى التى طوقتهم بأغلال الجهل والجمود وأسلمت قيادتهم إلى سلطة زعموا أنها « روحية » تكفر بالعلم وتسخر من العقل ، إذا فعل «التنويريون » ، ذلك فى أوربا ،

فماذا يريد مقلدوهم أن يفعلوا فى دار الإسلام ؟

أيريدون أن يختلقوا معركة وهمية بين العلم والدين لينقلوا من خلالها أفكار التنوير الأوربى إلى المجتمع المسلم وإلى العقيدة الإسلامية التى أنارت لأوربا طريق العلم وعلمتها احترام العقل ونقلت إليها تجربة فريدة فى بناء الحضارات التى تقوم على عطاء الفكر البشرى وثمار العلوم الطبيعية والإنسانية فى إطار وحدة فريدة يرتبط فيها الدين بالدنيا والأولى بالآخرة والمادة بالروح ارتباطا لا انفصام له؟

لئن ضل « فولتير » و « هيوم » و « ديديرو » بإنكارهم الرسل والأنبياء والوحى والكتب المنزلة ، فى غمرة صراعهم مع مجتمعهم المتخلف ، فهل يريد مقلدوهم فى وطننا العربى الإسلامى أن ينقلوا إلينا ذاك الضلال تحت ستار التقدم والحداثة ؟

لقد عرَّف أحد كُتاب (*) صحيفة الأهرام معنى الحداثة الغربية تعريفا جرد فيه الأمة الإسلامية من مقوماتها الحضارية ، وعلق الأستاذ فهمى هويدى على ذلك التعريف قائلا: إن كاتب الأهرام صور الأمة الإسلامية بأنها كانت بدائية وهمجية لا تملك شيئا من مقومات الحضارة . . لا قانون ولا دستور ولا تعددية ولا تعليم ولا جامعات . . . إلخ » .

(*) هو مدير مركز الدراسات الاستراتيجية فى القاهرة . انظر « الأهرام » الصادرة بتاريخ ٢٥/١/١٩٩٣ م ص ٩ .

ونظرًا لأهمية خطاب الأستاذ هويدى نستأذنه فى اقتطاف بعض مقولاته لأنها تمثل ردًا غير مباشر على مزاعم التنويريين العرب .

يقول هويدى :

« يصدمنا بوجه خاص ادعاء الكاتب بأننا اقتبسنا من الغرب أفكار الدستور وسيادة القانون والتعددية والجامعة المستقلة. . يدهشنا مثلا تجاهل الكاتب لكتابات أساتذة القانون الدستورى والدولى التى تحدثت عن الصحيفة التى كتبت فى العهد النبوى فى بداية تأسيس الدولة الإسلامية بعد الهجرة من مكة إلى المدينة قبل أربعة عشر قرنا وقد وصفت تلك الكتابات « الصحيفة » بأنها دستور المدينة ـ مدينة رسول الله ﷺ وكلمة دستور (الحديث ما زال لفهمى هويدى) فارسية بالمناسبة وليست مترجمة عن الغرب ، وحصرت فيها ٤٧ بندًا حددت الإطار العام والحقوق والواجبات فى مجتمع المدينة الذى عاش اليهود فى ظله إلى جوار المسلمين.

ويستطرد الأستاذ فهمى هويدى فى حديثه مشيرًا إلى أبحاث هامة لكبار علماء القانون الدستورى، قائلا : « إن الإسـلام هـو الذى قدَّم وللمرة الأولى فى تاريخ النظم السياسية أروع صورة للسلطة المنظمة تنظيما قانونيا ومن ثم لدولة القانون » ؟

وردًا على مزاعم أخرى ، قال الأستاذ هويدى :

« الذى يجب أن يعرفه (أى الجاهلون) أنَّ الغرب لم يعرف فى تاريخه فكرة التعددية ، لا الدينية ولا السياسية وإنما اكتشفها من الدولة العثمانية التى كانت فى عهودها الزاهرة نموذجًا لتسامح الإسلام مع المخالفين ولأجل ذلك طبقت ما عرف آنذاك بنظام « الملل » . . . وكان الإسلام أول رسالة للإنسانية تعترف للآخر بشرعيته وإن كان مخالفا فى الديانة والملة . وكانت المذاهب الإسلامية بمثابة أحزاب فكرية يعيش فى ظلها المسلمون أكثر من ١٢ قرنًا» أ هـ (*) .؟

(*) هويدى ، مقال « هل نحن مفلسون حقا؟ » الأهرام ٢٥/ ١/ ١٩٩٤م.

وفى مقابل هذه الصورة المشرقة ، يحدثنا سلامة موسى وهو أحد أقطاب التنوير المزعوم ، فى معرض نقده للغة العربية قائلا :

« لن يكون فى بلادنا نهضة علمية ولن نرقى فى الصناعة إلا حين نتخذ الحروف اللاتينية أى لن تستعرب العلوم إلا إذا استلتن (*) الهجاء العربى» (١).

ويقول : « إن الثقافة الإقطاعية تعنى تأليف الكتب فى العقائد الدينية (٢) .

ويقول عن فرح أنطون إنه كان مفكرًا حرًا بالمعنى الفرنسى وأنه أصدر مجلته «الجامعة » وفتح أبواب النهضة الأوربية (أى فى الشرق) (٣) .

ويصف سلامة موسى الدكتور شبلى شُميل وهو رفيق فرح أنطون : « كان روحه الكفاحى للغيبيات يسم كل كتاباته وكان يدعو إلى الحرية الفكرية فى كلمات جريئة وأحيانا فى وقاحة جريئة وقد نقل إلى لغتنا العربية كتاب بُوخنر (لودفج) أحد كبار دعاة الإلحاد فى أوربا (٤) .

تلك مجرد نماذج من ثقافة التنوير التى يعمل دعاة العلمانية اليوم على نشرها فى العالم العربى الإسلامى .

(*) أى أصبح لاتينيًا .

(١) سلامة موسى ، البلاغة العصرية واللغة العربية ، القاهرة ١٩٦٣ م ص ١٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨ ، ٩ ، ١٥٤ .

(٣) سلامة موسى ، تربية سلامة موسى، مؤسسة الخانجى، القاهرة ١٩٥٨م.

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

سلسلة التنوير.. ثقافة عصر بائد

« إننا نعتقد أن الإسلام ـ بخلاف سائر الأديان ـ ليس اتجاه العقل اتجاها روحيًا يمكن تقريبه من الأوضاع الثقافية المختلفة بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود . فإذا امتدت مدنية أجنبية بشعاعها إلينا وأحدثت تغييرا في جهازنا الثقافي ـ كما هو الحال اليوم ـ وجب علينا أن نتبين لأنفسنا إذا كان هذا الأثر الأجنبي يجري في اتجاه إمكانياتنا الثقافية أو يعارضها ، وما إذا كان يفعل في جسم الثقافة الإسلامية فعل المَصْل المُجَدِّد للقوى أو فعل السُّم ؟ ».

محمد أسد (ليوبولد فايس سابقا) [1] .

المواجهة مع من ؟ :

يقول دعاة العلمانية في سياق تعريفهم بحركة التنوير :

إن « المواجهة اليوم تدور بين نوعين من الفكر : أحدهما تنويري والآخر مضاد له ، الأول: يؤثر في فهم قضايا وضعت منذ قرابة قرن تحت مجهر البحث والحوار. والآخر: يعيد وضعها تحت فوهة البندقية.. والطرف الأول يضمُّ ضمن ما يضم: طه حسين وعلي عبد الرازق وقاسم أمين وزكي نجيب محمود وسلامة موسى وفرح أنطون وغيرهم ؛ والطرف الآخر يكون من نوع الأسماء غير الموجودة في الواقع المعاصر، بل تكاد تكون غائبة تماما عن الساحة الثقافية»!![2] .

ويفهم من هذا التعريف ـ بداهة ـ أن الطرف الذي تود حركة التنوير أن تحاوره يضُمّ أسماء لا وجود لها في عالم اليوم !! وهنا يضع التنويريون أنفسهم في

---

(1) محمد أسد (ليوبولد فايس سابقا) ، الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥١م ص ١٦.

(2) مصطفى عبد الغني مقال : « سلسلة كتب المواجهة » صحيفة الأهرام، القاهرة ، العدد الصادر بتاريخ أول فبراير ١٩٩٤م.

مأرق حقيقى ، يجعلهم أشبه ما يكونون (بدون كيشوت) صاحب القصة الشهيرة ، الذى كان يحارب طواحين الهواء!!

وإذا تجاوزنا هذه الحذلقة ، فإن مؤلفات الكتاب الذين تبنتهم حركة التنوير بنشر أعمالهم ــ كما سلف القول ــ تنتمى إلى المدرسة العلمانية التى عوّل عليها الغرب كثيرا فى بث فكره السياسى والاجتماعى خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

وقد باءت كل جهودها ــ لغرس الفكر اللادينى فى ديار المسلمين ــ بالفشل الذريع على الرغم من أنها كانت تعمل فى ظل الاحتلال الأوربى وتنعم بتشجيعه وتأييده كما رأينا فى مصر كرومر (١٨٨٣ ــ ١٩٠٧م).

قضية الإصلاح والتجديد :

لقد تضافرت جهود الاحتلال الأوربى مع عدد محدود من المفتونين ببريق الحضارة الغربية فى ذلك العصر لإحداث تغيير جذرى فى المجتمع الإسلامى باسم الإصلاح والتجديد ، من غير أن يدركوا أن للمجتمع الإسلامى معاييره الخاصة للإصلاح وهى لا تتفق مع المفهوم الغربى. . وتلك حقيقة أدركها بعض العلماء المهتمين بدراسة الإسلام ، وإن لم تدركها الكثرة الغالبة من المستشرقين. ومن هؤلاء القلائل الأستاذ أروين روزنتال فى كتابه بالإنجليزية : «الإسلام فى الدولة القومية الحديثة ».

إذ يقول فى مقدمته : « هناك اختلاف جوهرى بين التجربة الأوربية والإسلام حول قضية الدين والدولة ومفهوم الإصلاح . فالإسلام لم يشهد قط فى تاريخه ما يعرف عند الأوربيين (بحركة الإصلاح) Reformation والتى ترتبت عليها آثار أساسية فى أوربا منها فصل الدين عن الدولة ومفهوم الدين وتطوره. .إلخ.

ويقول روزنتال: إن فكرة الإصلاح فى الإسلام تعنى تأصيل الحياة فى المجتمع على أسس الإسلام الصحيحة ، بما فى ذلك تطهير الإسلام مما علق به من

شوائب ومفاهيم ليست منه فى شىء، الإصلاح فى الإسلام حركة ذاتية تعنى المزيد من الالتزام بتعاليم الإسلام والتعمق فى فهمها وتطبيقها فى واقع الحياة ، على نهج رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين (١) .

وما زال هذا هو الفارق الأساسى بين الإسلام والغرب فى بيان معنى الإصلاح والتجديد. أما إصلاح الإسلام فى نظر الغرب فيعنى إخضاع الإسلام وتغيير معتقداته الأساسية وشرائعه لتنصهر فى بوتقة الفكر الغربى. وهذا ما جعل طائفة من المستشرقين فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن ، يصفون الإسلام بالجمود والتحجر و (التخلف) لأنه استعصى على محاولتهم الرامية إلى إذابته، ومن هؤلاء على سبيل المثال وليم موير وستانلى لين بول وجيمز بارتوز ووليام بيلجريف واللورد هوتوز وكرومر ، والواقع أن مقولة كرومر الشهيرة «لا أمل فى إصلاح الإسلام » مستقاة من أفكار هؤلاء المستشرقين لأن كرومر نفسه كان جاهلاً بالدراسات الإسلامية وباللغة العربية على السواء.

ونخلص من ذلك إلى أن محاولة : « التنوير المعاصر » التى تصدرتها بعض الأقلام العلمانية فى الوطن العربى والإسلامى لا تعدو أن تكون ارتكاسة إلى ذلك العهد، وإحياء لأفكار نبذها المسلمون فى تلك السنين وما زال أقطاب العلمانية يأملون أن تجد قبولا بين أبناء المسلمين من الأجيال الحديثة . والحقيقة التى غابت عن دعاة العلمانية وهم يسعون إلى تحقيق هذه الغاية ، عبَّر عنها الأستاذ فهمى هويدى خير تعبير حين قال :

« إن الدكتور ــ فؤاد زكريا ــ ومعه أكثر الرموز العلمانية لا يريدون أن يصدقوا أن الزمن قد تغيَّر وأن الوعى الثقافى والإيمانى اختلف منذ العقدين الأخيرين خاصة ، بحيث أن من كانوا مستعدين لاستقباله منهم بالأمس أصبحوا

---

(1) E.Rosenthal, Islam in the Modern National State, Cambridge University Press 1965, P. Xii (Introduction).

يُعرضون عنه اليوم ، وما كان يبهرهم فى الماضى فقد بريقه منذ أن غدا الناس أكثر ثقة فى أنفسهم وأكثر تشبثا بجذورهم»[1] . أ . هـ .

وهذه الرسالة من الأستاذ فهمى هويدى جديرة بأن يتأملها جميع الكتاب الذين تطرقت هذه الفصول لمناقشة أفكارهم ، عسى أن يجدوا فيها مجالا للتأمل فى الذات ومراجعة الأفكار والاعتبار بتغيير الزمان.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا والحمد لله رب العالمين.

---

(١) فهمى هويدى ، مقال: بيان مغلوط ورسالة مغلوطة، الأهرام، أول فبراير ١٩٩٤م.

المصادر والمراجع

١ ـ أبو بكر بن العربى : العواصم من القواصم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٨م.

٢ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة ، دار الجيل ، بغير تاريخ ، بيروت ١٩٨٧م.

٣ ـ الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثالث ، مكتبة خياط، بغير تاريخ ، بيروت .

٤ ـ العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى، دار الريان ، القاهرة ١٩٨٧م، الجزء الثامن .

٥ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد) « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » . (تحقيق محمود محمد شاكر) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ .

٦ ـ بسام طيبى ، أزمة الإسلام الحديث (انظر ثبت المراجع باللغة الإنجليزية).

٧ ـ تراث الإسلام ، بحوث لنخبة من المستشرقين ، أشرف على إعدادها توماس أرنولد وألفريد جيوم ، نقلها إلى العربية جرجس فتح الله ، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨ م .

٨ ـ حسين أحمد أمين ، دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك فى القرن العشرين، دار الشروق القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٩ ـ خالد محمد خالد :

ـ من هنا نبدأ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الحادية عشر ١٩٦٩ (صدرت الطبعة الأولى فى القاهرة عام ١٩٥٠م) .

ـ الدولة فى الإسلام . دار ثابت للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨١م .

١٠ ـ زكى نجيب محمود « شروق من الغرب » ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م « رؤية إسلامية » دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٧م.

١١ ـ سلامة موسى : تربية سلامة موسى ، مؤسسة الخانجى، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٢ ـ سيد قطب « فى ظلال القرآن » عيسى البابى الحلبى ، القاهرة بغير تاريخ، الجزء الأول، الطبعة الأولى ، ١٩٥٢م .

١٣ ـ شكرى فيصل :

ـ المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول «دار العلم للملايين» ، بيروت ١٩٧٣م .

ـ حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م.

١٤ ـ عباس محمود العقاد ، رجال عرفتهم ، كتاب الهلال العدد (١٥١) أكتوبر ١٩٦٣م .

ـ عبقرية الصديق ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣ م .

ـ عبقرية عمر ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٢ م .

١٥ ـ عبد القادر الإدريسى ، « التنوير الإسلامى والتنوير العلمانى» ، صحيفة «المسلمون الدولية » لندن العدد (٥١٥) بتاريخ ١٦/ ١٢ / ١٩٩٤م.

١٦ ـ على عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم ، مطبعة مصر ، الطبعة الأولى ١٩٢٥م.

١٧ ـ فرج فوده ، الحقيقة الغائبة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ،

القاهرة ، ١٩٨٧م .

١٨ ــ فؤاد زكريا :

ــ الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٥م.

ــ الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٦م .

١٩ ــ فهمى هويدى « بيان مغلوط ورسالة ملغومة ، الأهرام ، القاهرة ، أول فبراير ١٩٩٤م.

٢٠ ــ لويس عوض ، مقدمة فى فقه اللغة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٠م.

٢١ ــ ليفى بريل ، فلسفة أوجيست كونت ، نقله إلى العربية محمود قاسم والسيد محمد بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٢ ، القاهرة .

٢٢ ــ محمد أحمد بيومى، علم الاجتماع الدينى ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية .

٢٣ ــ محمد أسد « الإسلام على مفترق الطرق » ، نقله إلى العربية عمر فروخ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥١ م.

٢٤ ــ محمد سعيد العشماوى ، أصول الشريعة ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٣م الطبعة الثانية .

٢٥ ــ محمد عمارة ، « المشروع الفكرى لسعيد العشماوى » ، صحيفة الشعب ، القاهرة ١٦/ ١٢/ ١٩٩٤م ــ حسين أحمد أمين ، هل هو أمين : صحيفة الشعب: القاهرة ، ٥/ ١٠/ ١٩٩٤م.

٢٦ ــ مصطفى عبد الغنى ، « سلسلة كتب المواجهة » مع من وكيف ؟ صحيفة

الأهرام القاهرة ، أول فبراير ١٩٩٤م.

٢٧ ـ هشام الكلبى (أبو المنذر) ، « كتاب الأصنام » الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٥ م.

٢٨ ـ يوسف إبراهيم النور ، مع المصاحف ، دار المنار ، دُبى ، الإمارات العربية المتحدة ١٩٩٣م.

مراجع أخرى :

1 - Arberry, A.J:

Revelation and Reason in Islam, George Allen and Unwin , London, 1957.

2- Aron, R.:

Main Currents of Sociological Thought, Penguin Books, Vol. I, 1965.

3- Brown, J.R.C:

The Evolution of society, Thinkers Library , London 1947.

4- Cromer, Earl of :

Modern Egypt, Macmillan and Co. London, 1908, Vol. 2 .

5- Lewis, Bernard:

The Arabs in History, Hutchinson University Library, London 1960 .

6- Rosenthal, E.I.J:

Islam in the Modern National State, Cambridge University Press 1965.

7- TIBI, BSSAM:

The Crises of Modern Islam, English Translation by Judith von Severs, Utah University, Salt Lake City, 1988.

صحف ودوريات :

١ ــ الأهرام ، القاهرة ، بتاريخ ١/٢/١٩٩٤ ، ٢٥/١٢/١٩٩٤م.

٢ ــ المسلمون الدولية ، لندن ، بتاريخ ١٦/١٢/ ١٩٩٤م ، العدد (٥١٥) .

٣ ــ الشعب ، القاهرة ٨/ ١٠/ ١٩٩٤ .

٤ ــ مجلة دراسات استراتيجية ، مركز الدراسات الاستراتيجية، الخرطوم ، بتاريخ يناير ١٩٩٥ م ، عدد ٢ .

٥ ــ مجلة الحوادث ، بتاريخ ١٦/١٢/ ١٩٨٦ ، عدد (٥٧٣) .

رقم الإيداع :
٩٩ / ٤١٤٣

الدار السودانية للكتب
Al Dar Al Soudania for Books

طباعة
ونشر
وتوزيع

Printing,
Publishing
& Distribution

السودان ـ الخرطوم ـ ش البلدية ، ص .ب: ٢٤٧٣،ت:٧٨٠٠٣١/ ٧٧٠٣٥٨، برقيا: توزيعدار

Sudan-Khartoum-BaladeyaSt.,P.OBox:2473,Tel:780031/770358 Telg:"TOUZIDAR"